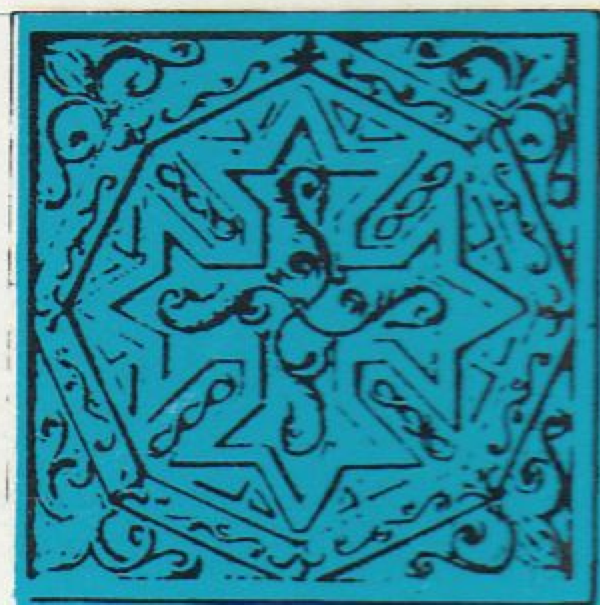
مؤسسة القديس أنطونيوس
المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية
بالقاهرة



نصوص آبائية ـ ٥٨

السجود والعبادة بالروح والحق

(المقالة الأولى)

للقديس كيرلس الأسكندرى

(عمود الدين)

مؤسسة القديس أنطونيوس
المركز الأرثوذكسي
للدراسات الآبائية
بالقاهرة
نصوص آبائية - ٥٨

السجود والعبادة بالروح والحق

للقديس كيرلس الأسكندري

(المقالة الأولى)

ترجمة
الباحث جورج عوض
ديسمبر ٢٠٠١م
مراجعة لجنة المراجعة بالمركز

أيقونة الغلاف:

أيقونة القديس كيرلس عمود الدين بالمقر البابوى بالأنبا رويس بالعباسية للفنان د. إيزاك فانوس، تصوير دير مار مينا بصحراء مريوط القس أنجيلوس أفا مينا.

اسم الكتاب : السجود والعبادة بالروح والحق. المقالة الأولى

اسم المؤلف : القديس كيرلس الأسكندرى (عمود الدين)

اسم المترجم : الباحث جورج عوض إبراهيم

الناشر : مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية بالقاهرة:

٨ (ب) ش إسماعيل الفلكي ــ الدور الأول محطة المحكمة مصر الجديدة ت: ٢٤١٤٠٢٣

E-Mail: santonio@link.net

اسم المطبعة : دار يوسف كمال للطباعة

٢ ش المدارس حدائق القبة ٤٨٢٧٠٧٤ ــ ٤٨٢٣٥٧٨

رقم الإيداع : ١٧٤٢٣ لسنة ٢٠٠١



قداسة البابا شنوده الثالث
بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

إهداء

إلى صاحب القداسة والغبطة البابا المعظم

الأنبا شنودة الثالث

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية
الذى يدعم عمل المركز بتعضيده المستمر

بمناسبة عيد جلوس قداسته الثلاثين
على كرسى مار مرقس

مقدمة

لمحات من حياة القديس كيرلس الأسكندرى[1]:

ولد القديس كيرلس حوالي سنة ٣٧٥م بالأسكندرية، وهو ابن أخت البابا ثاوفيلس بطريرك الأسكندرية الـ٢٣، وقد تعلم كيرلس في الأسكندرية برعاية البطريرك ثاوفيلس. ثم قضي كيرلس حوالي خمس سنوات في برية شيهيت (٣٩٤ـ٣٩٩)، إذ هناك قرأ العهدين القديم والجديد على يدي الأب سرابيون الشيخ خليفة القديس مقاريوس الكبير.

كان كيرلس يحفظ النص الكتابى بمجرد قراءته مرة واحدة، وحضر دروس المدرسة اللاهوتية بالأسكندرية على يدي ديديموس الضرير .

ثم استدعاه خاله البطريرك ثاوفيلس ليكون شماسًا معه في الأسكندرية ورسمه قارئًا وطلب منه أن يشرح الكتب المقدسة للشعب.

وفي سنة ٤٠٤م رُسم كيرلس قسًا بكنيسة الأسكندرية وانطلق كيرلس يعظ ويعلم الشعب ويفسر الكتب المقدسة. لقد درس القديس كيرلس مؤلفات آباء الأسكندرية مثل أوريجينوس، وأثناسيوس، وديديموس الضرير. كما أطلع أيضًا على مؤلفات القديسين باسيليوس القيصري وغريغوريوس النزينزى. كما درس القديس كيرلس اللغات القديمة الشائعة في أيامه وهي العبرية والسريانية ولكنه كتب باليونانية وربما القليل بالقبطية .

عندما تنيح الأنبا ثاوفيلس في ١٥ أكتوبر سنة ٤١٢م اتجهت أنظار الجميع إلى القديس كيرلس، فتم انتخابه وقام الأساقفة برسامته أسقفًا

---

[1] أنظر: دكتور نصحى عبد الشهيد، القديس كيرلس الأسكندرى حياته وكتاباته، أعمال المؤتمر السنوى السادس للدراسات الآبائية، سبتمبر ١٩٩٨، إصدار مركز دراسات الآباء، ص٩ـ١٨.

للأسكندرية وبطريركًا لكرازة مار مرقس رقم ٢٤ في نفس السنة وله من العمر حوالي ٣٨ سنة.

واصل البطريرك كيرلس جهاده في تعليم المؤمنين بالوعظ وتفسير الكتب المقدسة، وابتداءً من ٤٢٨م بدأ القديس كيرلس يظهر كعلامة بارزة ومحطة هامة في تاريخ العقيدة الأرثوذكسية وتاريخ العلاقات الكنسية، وذلك بظهور هرطقة نسطوريوس بطريرك القسطنطينية، إذ قام كيرلس بدور المدافع الأول عن الأرثوذكسية ضد البدعة النسطورية.

وقد تعرض القديس كيرلس للسجن لعدة شهور أثناء فترة وجوده في أفسس بسبب دفاعه عن الإيمان. وعند عودته إلى الأسكندرية في ٣٠ أكتوبر سنة ٤٣١م، استُقبل في الأسكندرية استقبال الأبطال، إذ نظر إليه المؤمنين على أنه أثناسيوس جديد وهكذا لقبه الأقباط بلقب " عمود الدين ".

رقد القديس كيرلس في الرب في يوم ٣ أبيب سنة ١٦٠ ش الموافق ١٠ يوليو ٤٤٤م، وذلك بعد كفاح طويل وصمود شامخ فى الدفاع عن الإيمان ضد أخطر بدعتين هما الآريوسية والنسطورية.

القديس كيرلس مفسرًا للكتاب المقدس :

لقد درج علماء الآباء على تقسيم كتابات القديس كيرلس إلى مرحلتين : الأولى: ما قبل ظهور البدعة النسطورية (٤٢٨م)، حيث كانت هذه الفترة مكرسة لتفسير الكتاب المقدس بعهديه والدفاع عن الإيمان ضد البدعة الآريوسية. الثانية: من ظهور البدعة النسطورية إلى نياحته (٤٤٤م)، وهذه الفترة كانت مكرسة للدفاع عن التعليم الصحيح عن التجسد وذلك ضد البدعة النسطورية .

يعتبر القديس كيرلس الأسكندرى من المفسرين العظماء للكتاب المقدس في تاريخ الكنيسة، وبينما اتّبع الطريقة الرمزية لتفسير العهد القديم، ظل محافظًا على العقيدة من أية مساوئ قد تنتج من التطرف فى التفسير الرمزي. إن التعليم عن المسيح ضد (آريوس، نسطور، أبولليناريوس، افنوميوس) يمثل الأساس لفهم كل شروحاته وتفسيراته للكتاب، وهو يعبّر فى شروحاته عن تقليد الكنيسة وعقيدتها.

القديس كيرلس بدون شك لا ينتمي إلى المتطرفين فى التفسير الرمزي كما كان يستخدم الطريقة التاريخية فى التفسير مع استخدامه للطريقة الرمزية مع الطريقة النماذجية (Typology)[٢].

إسهامات القديس كيرلس كمفسر للكتاب المقدس:

أ- العهد القديم :

إن تفاسير القديس كيرلس للعهد القديم تعتبر من أقدم كتاباته، فقد كتب " العبادة بالروح والحق" فى صورة حوار بينه وبين بلاديوس، وهو شرح روحى "رمزى"، " نماذجى"، ويشمل الكتاب١٧ جزءً، وهى موجودة باليونانية فى مجلد ٦٨ من باترولوجيا مينى.

---

[٢] التفسير المثالى أو النماذجى للكتاب المقدس يسمى " Τυπολογία " من كلمة "مثال" أو "نموذج" باليونانية "Τύπος" أو "Type" بالإنجليزية وهى تعنى نموذج أو مثال، يشير إلى حقائق أعلنت فى العهد القديم تتم فى الأزمنة الأخيرة بواسطة المسيح. والسمة الجوهرية فى هذا التفسير هو Christocentric أى أن المسيح هو مركز كل شئ، فآدم ونوح وموسى هم أمثلة أو نماذج لآدم الثانى ونوح الجديد وموسى الجديد أى "المسيح". والقديس بولس ينبهنا لذلك قائلاً: "فهذه الأمور جميعها أصابتهم **مثالاً** وكتبت لإنذارنا نحن الذين انتهت إلأينا أواخر الدهور" (١كو١٠: ١١). وهكذا نجد نموذج الإفخارسيتا هو المن السماوى فى إنجيل يوحنا، وعبور البحر الأحمر مثال المعمودية فى الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ، والطوفان نموذج للمعمودية فى رسالى بطرس الأولى.

وكتب أيضًا فى هذه الفترة "الجلافيرا" (Τα Γλαφυρά) "المختارات" من ثلاث عشر جزءً، وهو يُكمل ما سبق أن كتبه فى " العبادة بالروح والحق"، ولكنه لم يكن فى صورة حوار: ما يخص سفر التكوين سبعة أجزاء، وثلاثة أجزاء لسفر الخروج، وثلاثة لأسفار اللاويين والعدد والتثنية.

وكتب أيضًا فى هذه الفترة تفسيره لسفر إشعياء والذى شغل مجلدًا كاملاً (رقم٧٠) فى سلسلة Migne، وكتب أيضًا شرحه للأنبياء الصغار.

أما شروحات القديس كيرلس لأسفار الملوك، نشيد الإنشاد، والأنبياء حزقيال، إرميا، باروخ، دانيال فلم يبق منها سوى مقاطع صغيرة.

ب ـ العهد الجديد :

(١) شرح إنجيل يوحنا :

كتب القديس كيرلس شرحه لإنجيل يوحنا ويحوى ١٢كتابًا.

إن شرح كيرلس له طبيعة عقيدية، والمقدمة تكشف على أنه يريد أن يُعطى مفاهيم عقيدية للنص وأن يحارب الأفكار الهرطوقية.

يفحص القديس كيرلس في شروحاته هذه فكر الآريوسيين، وفكر أتباع أفنوميوس. وفى هذا الشرح لا يذكر لا نسطور ولا مصطلح والدة الإله. ومصطلحاته في هذا العمل ليست هي نفسها الموجودة في كتاباته بعد ظهور النسطورية. لذلك يوجد اتفاق بين المفسرين بأنه كتبه قبل فترة البدعة النسطورية[٣]، ويقوم المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية منذ سنة

---

[٣] هذا رأى الأب جورج فلورفسكى في كتابه " أباء بيزنطة القرن الخامس " والصادر في تسالونيكى سنة ١٩٩٢م.

١٩٨٩ بترجمة ونشر شرح هذا الإنجيل تباعًا إلى العربية، وقد نُشرت أربعة أجزاء منه حتى الآن على الإصحاحات من ١ــ ٨.

(٢) تفسير إنجيل لوقا :

هو مجموعة عظات حول نصوص إنجيل لوقا، والهدف من هذه العظات ليس عقيديًا فقط كما في تفسيره لإنجيل يوحنا ولكنه روحى وعملي أيضًا.

لقد بقيت فقط ثلاث عظات من النص اليوناني المفقود وبعض المقاطع الأخرى، بينما هناك ١٥٦ عظة وصلت إلينا باللغة السريانية (من القرن السادس) ومن خلال هذه الترجمة نعرف من العظة رقم ٦٣ أن وقت كتابة هذه العظات كان أواخر ٤٣٠ م لأنه يذكر حرومات القديس كيرلس الاثنى عشر، وقد ترجم المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية هذا التفسير على إنجيل لوقا من الترجمة الإنجليزية ونشره فى خمسة أجزاء من سنة ١٩٩٠ إلى سنة ٢٠٠١.

(٣) مقاطع تفسيرية لأعمال أخرى للعهد الجديد :

توجد مقاطع قليلة من شروحاته لإنجيل متى، وأسفار أخرى من العهد الجديد .

العبادة بالروح والحق:

لقد كتب القديس كيرلس هذا العمل فى صورة حوار بينه وبين بلاديوس وهو شرح رمزى ونماذجى للعهد القديم. ويشمل هذا العمل سبعة عشر جزءً. اتبع القديس التقليد الأسكندرى فى التفسير، إذ عبر على الحرف والتاريخ ودخل إلى قلب النص مفتشًا عن المعنى الروحى اللازم للغذاء. إن التفتيش عن " المعنى الروحى " وراء الحرف هو الغرض من التفسير،

والقديس مُحق فى تطبيقه لهذا المنهج فى تفسير العهد القديم لأن الناموس يعطى فقط صور ورموز للحقيقة، لذلك قد أُبطِلَ. ولكن كيرلس يشدد على أن الإبطال تم بحسب الحرف وليس بحسب محتواه الروحى وأهميته الروحية، ومن هنا فإن الناموس ـ بحسب رأى القديس ـ حفظ فاعليته حتى اليوم ولكن بحسب مفهومه الروحى. لذا فكل الأعياد والوصايا اليهودية المذكورة فى العهد القديم تمثل صورًا ونماذجًا للعبادة المسيحية الروحية. وإن كلمات المسيح التى تمثل مفتاحًا لهذا الأمر هى: "*ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له. الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا* " (يو ٤: ٢٣ـ ٢٤).

✠ فى الجزء الأول: يتكلم عن ضرورة تحرر الإنسان من الخطية التى دخلت بسبب سقوط الأبوين الأولين.

✠ فى الجزأين الثانى الثالث: يؤكد على التبرير بواسطة نعمة المسيح.

✠ أما فى الجزأين الرابع والخامس: يحدثنا القديس كيرلس عن ضرورة مشاركة الإرادة الإنسانية بالقبول والتفاعل مع دعوة المسيح.

✠ وفى الجزء السادس: يتكلم القديس كيرلس عن ضرورة الإيمان والمحبة نحو الله.

✠ وفى الجزء السابع وكذلك الثامن: يتحدث عن محبة القريب.

✠ وفى الأجزاء من التاسع إلى الثالث عشر: يحدثنا عن الكنيسة والكهنوت.

✠ وبعد ذلك يحدثنا عن التطهير والعبادة الروحية فى الأجزاء من الرابع عشر إلى السادس عشر .

✠ أما الجزء الأخير (السابع عشر): يحدثنا فيه عن الأعياد اليهودية وعن أنها تشير إلى الأفراح السماوية.

لقد كتب القديس كيرلس هذا العمل على الأرجح قبل عام ٤٢٨م. إن نهاية الجزء السادس والجزء السابع كله أُنقذا في ورق بردى يرجع إلى القرن السادس (٤٨ ورقة). وتوجد ترجمة سريانية لكل هذا العمل ترجع إلى القرن السابع. ويقوم المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ابتداءً من هذا الجزء بترجمة هذا الكتاب عن اليونانية ونشره تباعًا. وللمزيد من الاستفادة لهذا العمل التفسيري سوف نلقي ضوءً على الطريقة الروحية لتفسير الكتاب المقدس عند القديس كيرلس.

أساسيات التفسير الروحى للكتاب المقدس:

لقد كان القديس كيرلس كأسكندرى أصيل، تابعًا متحمسًا للتفسير الروحي للكتاب المقدس، وأيضًا في إطار التعليم عن شخص المسيح يشرح لنا التفسير الروحي. فكما أن ناسوت المسيح يؤكد ألوهيته تاريخيًا، هكذا أيضًا الحرف أو التاريخ يُعلنان المعني الروحي الإلهي المقصود من الكلام المكتوب .

والتفسير الروحي، بحسب القديس كيرلس، يتخذ الحرف أو التاريخ أساسًا له إذ فيه يتعرف على سر المسيح "سر التدبير الإلهي". فالتجسد يُعلن هدف التدبير الإلهي ويتعرف عليه عندما ننظر إلى أقوال وأعمال المسيح المدونة في الكتاب المقدس وفق هذا التجسد "الإخلاء" (عن الإيمان المستقيم ٣٠، P.G. 76, 1373C) .

لذلك، بحسب القديس كيرلس، يجب أن نعبر من حرف الكتاب والذى يصف الكلمة بطريقة بشرية، أي وفق مقاييس بشرية، إلى الفهم الروحي

الإلهي. إذن التفسير الروحي عند القديس كيرلس يستلزم التمييز الواضح بين عالمين: العالم المحسوس المادي؛ والعالم الروحي الذهني، ويستلزم أيضًا التأكيد على الاتحاد بين هذين العالمين بدون امتزاج، كما تحقق هذا الاتحاد في شخص المخلص الواحد ربنا يسوع المسيح. وبناء على ذلك فتطبيق التفسير الروحي يُنظر إليه على أنه تجلي وتغيّر للعنصر التاريخي والإنساني (الحرفي) وتحوله إلى العنصر الإلهي والروحي والذي هو متحد معه بغير امتزاج ولا انفصال.

والآن نسرد بعض المبادئ الأساسية لفهم التفسير الروحي لكيرلس :

١ــ يؤكد القديس كيرلس على أن الكتاب المقدس يتكلم عن الله بشريًا لأن الله لا يستطيع أن يتكلم أو يُعلن عن نفسه إلاّ بطريقة بشرية قريبة من الإنسان ومفهومة لديه (تفسير المزامير P.G. 69, 792). وهذه الطريقة لا تقلل من سمو المجد الإلهي، ولكن على العكس، فإن عجز العقل البشري واللغة البشرية هما السبب الذي جعل الكتاب يتكلم بطريقة بشرية عن الله. وهكذا فالكلام عن الله يحاكي ويتكيف بحسب الحاجة مع مقاييس الكلام البشري. ولكي نعرف سمو المجد الإلهي، علينا أن نفهم الشواهد التاريخية والإنسانية عن الله، المدونة في الكتاب المقدس وذلك بطريقة خاصة. إذ أن الإنسان موجود في كثافة جسدية وتحكمه قوانين بيولوجية، ويجب عليه ألاّ ينحصر في الفهم البشري للكلمات " اللاهوتية " ولا يعيها بطريقة حرفية صارمة أو بطريقة تاريخية فقط ولكن وفق العنصر الإلهي .

ستظل الكلمة البشرية قاصرة وغير كافية لوصف الإلهيات، فتعبيرها دائمًا نسبي، فهي محصورة داخل حدود اللغز والنموذج والعلامة والمثال. وبواسطة الكلمة نستطيع أن نفهم جانبًا ما من العنصر الإلهي الروحي.

فالكلمة الكتابية لا تعلن ماهية الله بالضبط، ولكن تعلم بعض مفاهيم عن الله (ضد نسطور ١:٣ P.G. 76, 33C) .

والذي حدد هذه المفاهيم ليست الكلمات اللغوية أو المفاهيم التاريخية في حد ذاتها، ولكن المعني الروحي المختفي والعميق السري، وذلك بحسب التدبير. والتدبير هو الذي يقودنا إلى الفهم الصحيح للأقوال البشرية (تفسير إشعياء٣:١، P.G. 70, 565C) .

إذن التفسير الروحي للكتاب ليس هو قضية لغوية أدبية صارمة، تقتصر فقط على الفهم الحرفي أو التاريخي، ولكن هدف التفسير هو "المعرفة الإلهية " والتي تستلزم عدم بقاءنا في الحرف أو التاريخ، ولكن نعبر فيه إلى الروح، فما يرمي إليه التفسير هو المعرفة الخلاصية لعمل التدبير الإلهي. لا يمكن أن نظل في الحرف (الكلمة المكتوبة) لأن الغرض منها هو الصعود الدائم نحو الأسمى، من المحسوس إلى الروحي. فالحرف يخدم سر التدبير الإلهي، والمحسوسات البشرية تتغير وتتجلى بفضل التجسد، نحو الحالة الإلهية في المسيح يسوع (تفسير متى، P.G. 75, 429C) .

بحسب القديس كيرلس فإن الكلمة في الفلسفة اليونانية هي بلا جسد (ἄσαρκος) أما الكلمة الكتابية فهي متجسدة (ἔνσαρκος) وهي حاملة لقوة سر الألوهية، فهي المثال والنموذج للروحيات، ولذلك ترفع العقل من الماديات إلى الروحيات .

٢ــ يشدد القديس كيرلس على عدم احتقار الحرف أو التاريخ ، فلكي نصل إلى التفسير الروحي لابد أن نفهم أولاً الخاصية التاريخية واللغوية للنص، وعن طريق هذا الفهم يستطيع المفسر أن يتعرف على قوة الكلمة التي تقود

إلى الرؤية الروحية. فالتفسير التاريخي والحرفي عند القديس كيرلس مهم لأنه :

أ ــ يعتبر الظل الذي يقود إلى عمق الروحيات (العبادة بالروح والحق ٣ ، P.G. 68, 540B) .

ب ــ يُؤمن حقيقة المفاهيم الروحية الإلهية بعيدًا عن التأمل الروحي المريض، لأن التاريخيات أو الحروف هي نماذج وظلال للحقيقة .

ج ــ له هدف تربوي، وتعليمي، وأدبي لأن مختارى الله سواء في العهد القديم أو العهد الجديد هم نماذج وقدوة للحياة المسيحية الحقيقية .

الكلمة المكتوبة لها مفهومان: تاريخي وروحي، والذي يقودنا إلى التفسير الصحيح هو الإيمان، لأن الإيمان يسبق المعرفة، إذ بواسطة الإيمان يصل الإنسان إلى المعرفة الكاملة (شرح إنجيل يوحنا٤،٤ :٢، P.G. 73, 576D) . والإيمان هنا هو المعرفة الصحيحة عن الله داخل حياة الفضيلة (شرح يوحنا١٢، P.G. 74, 756D). الإيمان بالاتحاد بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير في شخص المسيح، أعاد الوحدة بين المحسوس والروحي، وأيضًا بين أنشطة الإنسان الجسدية والحياة الروحية. ولكي نصل إلى المفهوم العميق والسري للكلمة الكتابية، هناك احتياج دائم لتطبيق الهدف العام، بمعنى أن نتعرف داخل شخصيات وأحداث وروايات الكتاب على فعل التدبير الإلهي وبالتحديد سر المسيح. هذه الطريقة تمنع وجود أي مسافة فاصلة بين العهدين القديم والجديد كما أنها تمنع وجود خلط بين العهدين. فالعهد القديم والعهد الجديد بينهما علاقة لا تنقطع، والتقليد الأسكندرى الذي ينتمي إليه كيرلس يستند على تفسير (٢كو٣ :٦) " *الذي جعلنا كفاة لأن نكون خدام عهد جديد. لا*

الحرف بل الروح. لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي"، و(عب١٠ : ١) "*لأن الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء، لا يقدر أبدًا بنفس الذبائح كل سنة التي يقدمونها على الدوام أن يكمل الذين يتقدمون*" .

فالعهد القديم هو نص نبوي له شكل الظل والمثال والنموذج، فهو يتنبأ عن سر المسيح، وهذا يسري على أسفار موسى الخمسة وأيضًا على كل الكتب النبوية. (العبادة والروح والحق٦، P.G. 68, 440A)، (تفسير إشعياء٢:٥، P.G. 70, 545D) .

العهد القديم هو ظل للعهد الجديد، وذلك في حالة فهمه بالتفسير الروحي، لأن طبيعة الكلمة الكتابية هي لغز وظل ومثال.. وبدون اللجوء للمحتوى الذي يُعلن بواسطة الكلمة فهى تظل بلا فائدة (شرح يوحنا٥:٤ ، P.G. 73, 661) .

عند القديس كيرلس هناك ثلاث أسباب تجعلنا نتمسك بالعهد القديم :

١ـــ بالعهد القديم نرى أن سر المسيح ليس شيئًا جديدًا ولا مستحدثًا ، بل هو موجود من البداية وقد عُبّر عنه في شكل الرمز والظل في الأحداث والأعمال التعبدية وأيضًا فى الأعياد المذكورة في العهد القديم (مختارات على سفر الخروج ص٢، P.G. 69, 424B) (على سفر ملاخي ص٢، P.G. 72, 364C) .

٢ ـــ كان المسيح حاضرًا في أحداث وشخصيات العهد القديم ولكن أيضًا بالرمز والمثال، وذلك بسبب ضعف السامعين (تفسير لوقا، P.G. 72, 901C) .

٣ ـــ حضور المسيح في العهد القديم يُبرهن على أن الكتب المقدسة أوحيت بنور روح المسيح (العبادة بالروح والحق٥:٤ ، P.G. 68, 1313D) .

وهكذا يُشدّد القديس كيرلس على أن نقبل العهد القديم لا بالمفهوم الحرفي بل بالمفهوم الروحي .



نتوسل إلى إلهنا القدوس محب البشر الآب والابن والروح القدس أن يبارك فى هذه الكتابات لبنيان كنيسته تمجيدًا لاسمه القدوس، بصلوات سحابة الشهود الآباء القديسين، وصلوات القديس كيرلس الأسكندرى عمود الدين ـــ مؤلف هذا الكتاب، وصلوات قداسة البابا شنودة الثالث؛ ولإلهنا كل السجود والتسبيح والتمجيد الآن وإلى الأبد . آمين.

١٤ نوفمبر ٢٠٠١م
٥ هاتور ١٧١٨ش
العيد الثلاثين لجلوس
قداسة البابا شنودة الثالث

المركز الأرثوذكسى
للدراسات الآبائية
بالقاهرة

السجود والعبادة بالروح والحق
المقالة الأولى

حول سقوط الإنسان وأسره في الخطية

وعن دعوته

وعن رجوعه بالتوبة

وعن ارتفاعه إلى الحياة الفُضلى

إلى أين تسير ومن أين أتيت، أسألك بالطبع وأعتبر أن السؤال غير ضرورى، لأنك ستقول بدون تردد إنى أعرف ذلك جيدًا، وأنك أتيت من البيت إلى هنا .

بلاديوس: هذا حقيقى.

كيرلس: ما هذا الكتاب الذى فى يدك؟

بلاديوس: إنه الإنجيل، بحسب متى ويوحنا.

كيرلس: وأين تظن أنه يجب أن تذهب به ولمن؟ لأنك بالتأكيد لن تستطيع يا بلاديوس أن تدرسه خارج البيت، فالتعب والمشقة في القراءة تكون ممتعة في هدوء البيت.

بلاديوس: نعم. أتيت لكى أتحدث معك. وأحضرت لك الكتاب المقدس، لأنه بالرغم من إنى أجهدت نفسى مرارًا، لم أفلح في أن أفهم جيدًا ما الذى يقصده ربنا يسوع المسيح بما يقوله في الإنجيل بحسب متى "*لا تظنوا إنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإنى الحق*

أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل "[1]

وهذا الذى يقوله للمرأة السامرية في إنجيل يوحنا: " *يا امرأة صدقينى إنه تأتى ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب. أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجد لما نعلم. لأن الخلاص هو من اليهود. ولكن تأتى ساعة وهى الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له. الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا* "[2].

كيرلس: ما هو الذى يبدو لك صعبًا فيما ذكرت؟ وما هو الشئ الغامض وعسير الشرح فيه؟ أخبرنى.

بلاديوس: تأمرنا الكلمة المقدسة بأن نتحرر من العادات القديمة، ونكف عن أن نتبرر بالناموس. لقد قال بولس لهؤلاء الذين يريدون أن يتبرروا بالناموس بعد إيمانهم بالمسيح: " *قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس سقطتم من النعمة. فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء بر* "[3]. وبينما يُظهر دوافع مُشرّفة وعظيمة من أجل الافتخار بالحياة وفق الناموس، لكنه يُقرر أيضًا " *ما كان لى ربحًا فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إنى أحسب كل شئ أيضًا خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى الذى من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية*

---

[1] مت ٥: ١٧ـ١٨

[2] يو ٤: ٢١ـ٢٤

[3] غلا ٥: ٤ـ٥

لكى أربح المسيح وأوجد فيه، وليس لى برى الذى من الناموس بل الذى بإيمان المسيح، البر الذى من الله بالإيمان "[٤].

ويؤكد بوضوح أن الوصية القديمة لم تكن بلا لوم. لذلك قد حلت الوصية الجديدة أى الإنجيلية محل الوصية القديمة لمنفعتنا بواسطة المسيح. وحسناً يكتب الآتى: " *فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها. إذ الناموس لم يُكمل شيئًا. ولكن يصير إدخال رجاء أفضل به نقترب إلى الله* "[٥]. لأنه لو أن الوصية الأولى أعطيت لكمالنا لمَا كانت هناك حاجة للثانية لأنه يقول " *فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طُلب موضع لثانٍ. لأنه يقول لهم لائمًا هوذا أيام تأتى يقول الرب حين أُكمل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا. لا كالعهد الذى قطعته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا في عهدى وأنا أهملتهم يقول الرب. لأن هذا هو العهد الذى أعهده مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام. يقول الرب أجعل نواميسى في أذهانهم وأكتبها على قلوبهم وأنا أكون لهم إلهًا وهم يكونون لى شعبًا* "[٦]. وبولس يتأمل في كل هذا ويفسر بشكل خاص مفهوم العهد الجديد قائلاً: " *فإذ قال جديدًا عتّق الأول وأما ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال* "[٧].

إذن لو أن الناموس لم يقدِّم الكمال في أى شئ، وصار إبطال للوصية القديمة ودخول للثانية التي تقودنا إلى الاقتراب من الله، لماذا يقول المخلص " *لم آتِ لأنقض الناموس بل لأكمل* " وأنه " يجب أن نعبد إلهنا

[٤] فيلبى ٣: ٧ـ٩

[٥] عب ٧: ١٨ـ١٩

[٦] عب ٨: ٧ـ١٠

[٧] عب ٨: ١٣

وأبانا بالروح والحق"؟. هذا يعلن على ما أظن أنه يجب أن نهجر عادات الناموس وعبادته.

كيرلس: إنها تساؤلات متسعة كاتساع البحر. لأن أى عقل له القدرة على تحمل الرؤية بأكثر لمعانٍ، لدرجة أنه بجوار كل ما هو من القديم الذى أُعطى بواسطة الحكيم موسى، يُقدّم لنا الكتاب الجديد كأخ وجار ومهتم بنفس الأمور، وأن الحياة (في المسيح) ليست منفصلة تمامًا عن ما جاء فى الناموس، وذلك لو فُحِصَ الناموس بالمفهوم الروحى؟ لأن الناموس هو مثال وظلّ التقوى، والحقيقة فيه لا تزال في فترة المخاض، وجمال الحقيقة هذه مُخفى داخل الناموس. ربما ستقول أن الأمر ليس هكذا كما أقول؟

بلاديوس: هكذا بالضبط. لكن كيف يمكن أن يتضح هذا الأمر؟ أو كيف يمكن أن نعتقد أن مَن يسير حسب الوصية الإنجيلية يعتمد على الوصية القديمة، وأن الوصية الإنجيلية مكملة لكل ما حدده موسى؟

كيرلس: ليس من السهل افتراض هذا الأمر. فالفضيلة هى، على ما أعتقد، أمر متشعب جدًا ومتعدد الجوانب. ومفاخر الحياة المسيحية تُزين بعدد لا حصر له من الأعمال الصالحة. ولأجل ذلك طبعًا يضع داود العظيم في مزمور ٤٤ بجوار المسيح ـ في مكان الملكة ـ الكنيسة كعذراء نقية ويُحوطها بزى مُوَشّى بالذهب قائلاً: " *جُعلت الملكة عن يمينك مزينة بذهب أوفير* "[٨]. إن كلمة "بذهب" تعنى بكل وضوح، كرامتها وإشراقها، بينما كلمة "مزينة" تعنى كثرة جمال الفضيلة. فالكنيسة ذات جمال بالغ، ولديها زينة عقلية لا تُرى بالأعين الجسدية، بل تُرى بالعقل والقلب، وهى خفية عن اليهودى، بينما تظهر لنا نحن في جمال رائع وأصيل بلا حدود.

---

[٨] مز ٤٥: ٩

لأنه كما يكتب الطوباوى بولس: "*لأن اليهودى في الظاهر ليس هو يهوديًا ولا الختان الذى في الظاهر في اللحم ختانًا. بل اليهودى في الخفاء هو اليهودى وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان الذى مدحه ليس من الناس بل من الله* "[٩].

بلاديوس: أخبرنى، طالما أُدخل الختان الروحى، وتغيرت الذبائح الناموسية ولن يكون لطريقة الحياة اليهودية أى مكان عندنا، ألا يبدو من المستحيل أن يقول المسيح "*لم آتى لأنقض الناموس بل لأكمل*"؟. لو لم تكن الأمور هكذا، أعتقد أنه سوف لا يعطلنا عن أن نمجد إله الكل بذبائح الثيران والتبخيرات، ونُقدم له يمام وحمام أو أى شئ آخر نعتقد أن الأقدمين قد فعلوه، لكى نفعله نحن أيضًا.

كيرلس: لكنك يا صديقى، قد ابتعدت كثيرًا عما يليق. لأنك تعتقد أن الناموس قد تغير، لدرجة أنه لم يعد لدينا أى منفعة منه، وأنه على أية حال ليست هناك أى منفعة من الأمور التى وضعها. ألا تعتقد أن الناموس قد تحول بالأحرى إلى إشارة نحو الحقيقة، مع أنه بالتأكيد قد كتب الطوباوى بولس "*أفنبطل الناموس بالإيمان حاشا. بل نثبت الناموس*"[١٠]. لأن الناموس هو مُربى ويقود بطريقة حسنة إلى سر المسيح. ونقول إن كل ما شرّعه موسى للأقدمين، ما هو إلا أساسيات بداءة أقوال الله. لكن لو أهملنا المربى، فمَن سيقودنا عندئذ إلى سر المسيح؟. ولو رفضنا أن نتعلم أساسيات بداءة أقوال الله، فكيف سيمكننا الاستمرار؟ أو كيف سنصل إلى الغاية؟ أفليس المسيح هو الذى يُكمل الناموس والأنبياء كما تقول الكتب؟

[٩] رو ٢: ٢٨ـ٢٩

[١٠] رو ٣: ٣١

بلاديوس: نعم

كيرلس: بالفعل. فإنه مكتوب أنه هو مكمل الناموس والأنبياء لأن كل كلمة نبوية وناموسية تخصه وتشير إليه.

لقد قال (المسيح) وهو يتوسل إلى اليهود لأجل عصيانهم: "*لا تظنوا إنى أشكوكم إلى الآب. يوجد الذى يشكوكم وهو موسى الذى عليه رجاؤكم . لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه قد كتب عنى. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامى* "[11].

إذن يقول إنه لم يأتِ إطلاقًا لكى يشكو الناموس، بل بالحرى لكى يُكَمله، فلا تُفكر أنه قد تمّ تغيير كامل للشرائع القديمة، بل على الأرجح قد تم تجديدها بطريقة ما. وأستطيع أن أقول هكذا، إنه حدث نقل لنماذج أو أمثلة (من العهد القديم) إلى الحقيقة أى من الظلال إلى الحقيقة .

بلاديوس: بالصواب تتكلم.

كيرلس: سأشرح لك ما كان يجب أن يصير بواسطة المسيح (بالمثال التالى). فأولئك الفنانين الذين يرسمون ويكتبون على الألواح، لا يكتبون مباشرةً بمجرد ما يبدأون الكتابة، بحيث يكون في شكل كامل وغير ناقص ومكتمل تمامًا. إنهم في البداية يخططون بشكل الرسم ولونه، بحيث يصبح ذا جودة فائقة، ويختارون المواضع التى تحتاج إلى ظلال معينة. وإلى أى الدرجات يجب أن تُبَين وتُوضَحْ حتى يصلوا إلى الشكل المطلوب، والأكثر مناسبة. وهكذا يصلون بنماذجهم إلى الشكل الذى نراه أخيرًا. وهو الأفضل بشكل لا يقارن عما كان في البداية. أليس كذلك؟

بلاديوس: نعم، إنه كذلك.

---

[11] يو ٥:٤٥ــ٤٧

كيرلس: وهؤلاء أيضًا الذين يمارسون فن صنع التماثيل النحاسية، إن أرادوا صب النحاس السائل في قالب التمثال المعد لذلك، فإنهم يُصورون أولاً شكل التمثال على نموذج شمعى، ويصنع القالب على هذا النموذج، وبعد ذلك يُذيبون النحاس على النار ويسكبونه في القالب. وهكذا يضيفون لتحفتهم ــ بطريقة حسنة ــ كمالاً وجمالاً. وعندما يضيف الصانع الألوان المتنوعة فوق آثار الرسم، وأيضًا عند إحلال النحاس محل النموذج الشمعى سيُظن في لحظة ما، أنه قد نُقضَت وأُبطِلت الأشكال الأولى. لكن الأمر ليس كذلك. لأنه لو كان هذا الاعتقاد حقيقيًا، لقال الرسام والصانع إننا لم نلغِ آثار الكتابة، ولم نسئ إطلاقًا استخدام النماذج، لكن بالحرى قد أكملناها. أى أن ما كان يبدو غير واضح وبدون جمال في الظلال والنماذج الأولى صار الآن أكثر روعةً ووضوحًا.

بلاديوس: بالصواب تتكلم.

كيرلس: ولو أراد أحد أن يفحص حقيقة الكتاب المقدس بالتفصيل، فإنه سيتأكد على أية حال أن ما أقوله صحيح. لأن موسى وضع برقعًا على وجهه، وذلك بحسب الكتاب لأن الإسرائيليون لم يستطيعوا أن ينظروا وجهه[١٢].

بلاديوس: إلى أى شئ يشير هذا ؟

كيرلس: بسبب أفكار اليهود الغليظة، لم يفهموا إلا ظاهر الناموس الحرفى فقط، ولذا كان من المستحيل تمامًا أن يفهموا ويميزوا كل ما كان مستترًا داخل الناموس، أى الوجه الحقيقى لمعانى كلمات الناموس. لذلك يكتب القديس بولس: " *بل أغلظت أذهانهم لأنه حتى ذلك اليوم البرقع نفسه عند*

[١٢] أنظر خر ٣٤: ٣٣ــ٣٥

قراءة العهد العتيق باق غير منكشف الذى يُبطل في المسيح. لكن حتى اليوم حين يُقرأ موسى البرقع موضوع على قلبهم"[١٣]. لكن دعنا نتوقف هنا عن الكلام فى الأمور التى صارت لليهود.

(ويقول)" *ونحن جميعًا ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح*"[١٤].

هنا كلمة "الرب" تعنى "الروح". فكما أن أولئك الذين ينظرون في مرآة ليشاهدوا صورة ونموذجًا للحقيقة، فإنهم سوف لا يستطيعون رؤية الحقيقة نفسها، على ما أعتقد. هكذا أيضًا، فإن كل مَن يرغب مشاهدة (صورة) جمال الحياة في المسيح عن طريق مرآة الناموس، سوف ينال هذا الذى يتمناه وذلك بطريقة حسنة. بمعنى أنه سوف يرى صورة الأشياء أو نموذجًا لها وفيها يعرف حقيقة الأشياء، وهكذا سوف يرى بكل وضوح هذا الذى يريده الله ويُسر به .

بلاديوس: لكن ما هو السبب الذى من أجله لم يُعطَ الجديد الإنجيلى من البداية للأقدمين، بل أعطى لهم في نماذج وظلال فقط؟

كيرلس: إن تمام التدبير وعلاقة هذه الظلال بالحقيقة الكاملة، هو أمر يليق بنا أن نتركه لله كُلِّى المعرفة، لكن الأفكار التى لا ينقصها مفاهيم صالحة، فإنها تقودنا إلى معرفة معتدلة أو إلى الاعتقاد بأننا نعرف سبب التدبير. إذًا يمكننا القول أن الذين تحرروا من أرض مصر، كانوا في أشد الحاجة إلى غذاء يناسب الأطفال. إذ كان لديهم ذهن غليظ وكان من السهل إغواؤهم إلى الضلال. فإنه من الصعب عيهم ترك محبة الجسد ومحوها تمامًا من

---

[١٣] ١كو ٣:١٤ــ١٥

[١٤] في نص القديس كيرلس " بواسطة الروح الذى هو الرب " ٢كو ٣:١٨ ، ١٧

هؤلاء المرضى بها. أيضًا أولئك المأسورين فى شهواتهم من العسير عليهم تجنبها. وقد كان من المستحيل أيضًا أن ينالوا مباشرةً القدرة على الوصول إلى حياة الكمال، وأن يُفضلوا حياة مجيدة مُشرقة، وفائقة، إلى الحد الذى ينالون فيه مواطنة السماء، بينما هم يعيشون على الأرض، بحسب ما هو مكتوب[١٥]. أفليس الطعام القوى هو للكاملين أما اللبن فهو مناسب جدًا للأطفال؟![١٦]

بلاديوس: هكذا هو الأمر بالفعل.

كيرلس: كانت الحاجة إذن، إلى التربية باستخدام أسلوب الأمثال، إذ كانوا أطفالاً، ولكى أشرح لك ما أقصده أشير إلى إنهم كانوا في احتياج إلى طعام أكثر ليونة، وليس إلى الكلمة التى تُوجّههم نحو الكمال والتى تقودهم نحو النضوج. هكذا كان الإسرائيليون عديمى الرؤية متساهلين تجاه أية شهوة. لأنه لو فحصت سلوكياتهم ومحاولاتهم للوصول للكمال، بأى معيار، سوف نجدهم غير مستحقين ولا حتى للظلال. هذا ما قد أظهره موسى. لأنه، حينما صعد موسى إلى الجبل بأمر الله، ليستلم الناموس، انجرفوا مباشرةً نحو العصيان وصنعوا عجلاً متجرئين فى تعاسة ليقولوا: " *هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر*"[١٧]. بسبب هذه التجاوزات الخطيرة، غضب موسى وكسر لوحىّ الشريعة وأدانهم. هؤلاء الذين لهم عقل ضال لا يستحقون ولا حتى لظلال أو أمثلة، ولا لأية تربية من قبل الله. فهم قد نسوا المعجزات الكثيرة التى صنعتها القوة الإلهية لأجلهم،

---

[١٥] فيلبى ٣: ٢٠

[١٦] ٢عب ٥: ١٢ـ١٤

[١٧] خر ٣٢: ٤

وتذكروا العبادة الوثنية فى مصر ونسبوا تقواهم إلى العجل. ووقتذاك سُطر الناموس بيد الله للأقدمين على ألواح حجرية كما هو مكتوب، وهذه الأمور كانت مثالاً لكل ما يحدث لنا نحن الذين نؤمن بالمسيح. كأن الله قد كتب داخلنا معرفة إرادته بواسطة الابن بنعمة الروح. لأنه هكذا يدعوه على فم داود قائلاً: " *لسانى قلم كاتب ماهر*"[١٨] أى أن قلم الآب، أى الابن قد كتب داخل قلوب الجميع معرفة كل صلاح، وذلك بأصبع الله وبواسطة روح الآب، وقد دُعى روح الله " أُصبع " قائلاً: " *إن كنت بروح الله أخرج الشياطين* "[١٩]، وفي مكان آخر " إن كنت *بأصبع الله أخرج الشياطين*"[٢٠]. وقد دعانا بولس فى رسالته الروحية قائلاً: " *أنتم رسالتنا* مكتوبة *في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس. ظاهرين أنكم رسالة المسيح* مخدومة *منا* مكتوبة *لا بحبر بل بروح الله الحى. لا في ألواح حجرية بل في ألواح قلب لحمية* "[٢١].

بلاديوس: أوافق بالتأكيد على أن كل ما يخص الناموس هو نماذج وظلال. فلنكمل حديثنا إذًا، ولندرك بالتفصيل وبكل دقة كل ما قد شُرّع في شكل مثال، ودعنا نفحص بحرص شديد كل جانب من جوانب هذه الحقيقة البديعة، لأنه حينئذٍ فقط سيزول كل غموض حول أسرار العبادة الروحية.

كيرلس: ولكنى أصرح لك يا صديقى المتفكر في هذه الأمور، أنه قد تملكنى خوف بالغ، وإنى أتردد كثيرًا جدًا تجاه هذا العمل، لأنى أعتقد أنه لن تكون هذه الأمور السامية مفهومة لدينا إذ هى تفوق أفكار البشر. ويجب

---

[١٨] مز ٤٥: ١

[١٩] مت ١٢: ٢٧

[٢٠] لو ١١: ٢٠

[٢١] ٢كو ٣: ٢_٣

علينا ونحن نُفسر مفاهيم الناموس العميقة، أن نقول " مَن هو حكيم حتى *يفهم هذه الأمور وفهيم حتى يعرفها* "[٢٢].

بلاديوس: يا عزيزى، هذا العمل ليس سهلاً، لكن المسيح يقول: " اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم "[٢٣].

كيرلس: إذن دعنا نلتزم بما قلناه، ونتقدم لنفحص كل هذه الأمور التى تفيدنا، وقبل كل شئ فلنوجه صلاتنا نحو الله قائلين: " *اكشف عن عينى فأرى عجائب من شريعتك* "[٢٤]. ولنبدأ حديثنا أولاً بأن نتكلم عن انحراف الإنسان وسقوطه في الخطية، وعبوديته وأسره بواسطة عدو الخير، وكيف كان هذا وبأية طريقة تمت هذه الأمور، ممن كانوا قبلنا، وكيف تسللت إلينا. ختامًا يجب أن نتساءل كيف يمكن أن نبتعد عن الشر، حتى يتحرر كاهلنا من نير العبودية ونصعد ثانية إلى رتبتنا الأولى، ونتمتع بخلاص الله وقوته. لأن حديثنا بهذه الطريقة المناسبة سيساعدنا فيما سنتحدث عنه بعد ذلك.

بلاديوس: حسنًا تفكر.

كيرلس: إذن، لكى نستطيع أن نثمر لله ونقدم ذبائح روحية، بمعنى أن نجاهد بشجاعة ونشتهى حياة الفضيلة، وهذا بالتأكيد لا يمكن أن يتوافق مع أولئك الذين لم يتخلصوا بعد من العبودية والانسياق إلى الشهوات، لكنه يتوافق مع هؤلاء الذين حلّقت عقولهم نحو الحرية، ورفضوا حيل الشيطان وخداعه.

---

[٢٢] هوشع ١٤: ١٠

[٢٣] مت٧: ٧

[٢٤] مز١١٩: ١٨

بلاديوس: أتفق معك إذ أنك تفكر بالصواب.

كيرلس: إذن فقد قبلنا، أن الإنسان منذ البداية، قد خُلق وفكره يسمو فوق الخطايا والشهوات، لكنه لم يكن مُحصنًا تمامًا من الانحراف في اختياراته. لأن الخالق الأعظم للجميع، قد رأى حسنًا أن يترك الإنسان لإرادته المستنيرة ويسمح له أن يعمل ما يفكر فيه، وذلك بدافع نفسه فقط. بمعنى أن الفضيلة كان يجب أن تُتمم اختياريًا وليس كأمر إجبارى، وأيضًا ألا تكون الفضيلة موجودة بدون تغيير في صفات الطبيعة البشرية، لأن الثبات خاصية الجوهر الإلهى الذى هو فوق الكل ويفوق كل الأشياء. فالله قد خلق الإنسان ذلك الكائن الحى بطبيعة خاصة به كإنسان، مانحًا إياه غنى التشبه به. إذ قد رُسمت في الطبيعة البشرية صورة الطبيعة الإلهية بنفخة الروح القدس. وحيث إن الله هو الحياة ـ بحسب الطبيعة ـ لذلك فهو يعطى نسمة الحياة.

بلاديوس: إذن، بناء على ذلك فإن نفس الإنسان قد صارت روحًا إلهية!!

كيرلس: ألا يكون التفكير بهذه الطريقة غير منطقى بالمرة ؟! لأنه حسب هذا التفكير ستكون النفس غير متغيرة، والواقع أنها متغيرة، ومن المؤكد أن الروح لا يتغير. وإذا كانت النفس قابلة للتغيير، فحينئذ سيوّجه الاتهام بالتغيير إلى الطبيعة الإلهية نفسها، لأن الروح هو من طبيعة الله الآب والابن وواحد معهما في الجوهر، وهو يُعطى من الآب بالابن. وبالتالى فإنه من غير الصواب أن يعتقد المرء أن الروح قد تغير إلى نفس، ووُضِع في طبيعة الإنسان. على العكس فإن نفس الإنسان قد أخذت قوة فائقة الوصف وزُينت من أول لحظة بعطية الروح. فأنه لا توجد طريقة أخرى نستطيع بها أن نكتسب جمال الصورة الإلهية.

بلاديوس: حسنًا تتكلم.

كيرلس: طالما أن الله قد زين الإنسان الذى خلقه بهذه الطريقة ، فقد منحه القدرة أن يعيش في الفردوس. لكن بسبب أنه كان يليق لهذا الإنسان المُزين والمتوج بالخيرات السماوية الوفيرة أن لا يُترك فيُخدع بسهولة ويسقط في الكبرياء، متجاهلاً أسلوب الخضوع للأوامر، وأنه يوجد ضابط للعبيد (لأن السهولة الكبيرة في اقتناء المجد أو الحرية بلا ضابط تقود نحو شهوة الكبرياء الملعونة)، لذلك أُعطى (للإنسان) قانون ضبط النفس (الإمساك) كوسيلة أمان، حتى لا يُقاد إلى تجاهل السيد، ويكون مدعوًا دائمًا لتذكر ذاك الذى أعطاه الوصايا، كسيد له، هكذا يعرف بكل وضوح أنه كان خاضعًا لنواميس سيده. لكن لم يهدأ ذاك الوحش الشرير والمحارب لله.

بلاديوس: أظن أنك تقصد الشيطان الذى سقط كالبرق من أعلى السموات[٢٥]، لأنه اختار التفكير الطفولى إذ أراد أن يكون إلهًا، وتخيل أنه كان يملك كل ما هو فوق طبيعته.

كيرلس: بالصواب تكلمت. لأنه في الحقيقة، إذ هو مُبتدع وأب للخطية والفساد لم يرد أن يترك الإنسان بلا منغصات، ساعيًا فيما بعد بتغريرات وحيل ليدفعه نحو العصيان، مستخدمًا في خداعه المرأة كأداة له، وهو دائمًا يدفعنا نحو الخطية، واللذات التى تصاحبنا وتسكن في داخلنا، والتى من بينها لذة اشتهاء المرأة. ومرات كثيرة يسرع العقل، بتأثير اللذات نحو الأمر الذى لا يريده. إذن فهذا الذى حدث مع آدم بطريقة مادية ومحسوسة، من الممكن أن يحدث ذهنيًا وبطريقة غير محسوسة مع كل واحد منا، حيث تظهر أمام العقل، الشهوة التى تبهره وتجذبه تدريجيًا نحو الاعتقاد بأن

---

[٢٥] لو ١٠:١٨

مخالفة الناموس ليست أمرًا خطيرًا على الإطلاق. ويؤكد على هذا تلميذ المسيح حين يقول:" *لا يقل أحد إذا جُرب إنى أُجرب من قبل الله. لأن الله غير مُجرب بالشرور وهو لا يجرب أحدًا ولكن كل واحد يجرب إذا انجذب وانخدع من شهوته. ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية والخطية إذا كملت تنتج موتًا* "[٢٦].

بلاديوس: وأنا أعتقد أن الافتقار لمواهب الله ليس هو شئ آخر إلا البعد عن كل صلاح. حيث يمكن أن تسقط الطبيعة البشرية بسهولة ويسر، في مرض الانحراف والأمور غير اللائقة، إن لم تسمو بالفضيلة وبنعمة مخلصها، وإن لم تهتم بالصالحات التى من السماء، وأيضًا بالصلاح الذى من داخل النفس ذاتها.

كيرلس: حسنًا تكلمت، وإنى أتفق معك بالطبع فيما تقول. لأن الخبز الحى أى كلمة الله يشبعنا روحيًا. لأنه مكتوب " *الخبز الحى يسند قلب الإنسان* "[٢٧]. هذا (الخبز) يُحررنا من العبودية والشهوات، ويُزين نفوسنا ببهاء الحرية. لكن لو أن الله كف يده أو توقف عن أن يمنحنا هذا الصلاح، فإننا بالضرورة سنسقط في الشرور غير المرغوبة، ونفتقر إلى الفضيلة، ونتحمل كل ما يقع على عاتقنا بسبب فعل كل ما هو ضد الفضيلة. ونصل لمثل هذه الدرجة من الشرور والطمع، لدرجة أننا نخاطر بفقدان الضمير الذى يعضدنا في اكتساب كل صلاح. ويتضح من ذلك أن قلب ذاك الذى سقط يكون فارغًا تمامًا من الحكمة الإلهية، ومُنقادًا إلى الهوان من قبل الشيطان، ويخضع بسهولة لوضاعته وعصيانه.

---

[٢٦] يع ١:١٣ـــ١٥

[٢٧] مز ١٠٤: ١٥

بلاديوس: هل ستستعرض كيف حدث كل هذا؟ أم سوف تترك هذه الأمور تتأرجح وسط أفكار هائمة. لأني سوف أعطي الدليل وبقدر الاستطاعة، من خلال كل ما حدث للأقدمين وأعرضه بشكل مفهوم. وذلك سيحدث لأن كل ما ستتعرض له بالتأمل الدقيق من أمور هامة محسوسة ومنظورة، سيصبح بالنسبة لنا صورًا صافية وواضحة. إذ أنه مكتوب عن أبينا إبراهيم " *وحدث جوع في الأرض. فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديدًا*"[28]. إبراهيم ترك أرضه المحبوبة والمولود فيها، وهاجر إلى أخرى أظهرها له الله. لأنه يقول " *اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك*"[29]. وعندما تفاقم الجوع مسببًا أضرارًا، وكان من المستحيل أن يتجنبه، اضطر بدون إرادته، أن يذهب إلى مصر. ولم يذهب إلى هناك ليسكن على الدوام، لكن ذهب إليها كغريب.

بلاديوس: لكن ما معنى هذا ؟

كيرلس: هذا الحدث يُعبّر بطريقة رائعة عن الأمور غير الواضحة.

بلاديوس: بأية طريقة ؟

كيرلس: لقد اشتكى الله عصيان اليهود قائلاً: " *هوذا أيام تأتي يقول السيد الرب أرسل جوعًا في الأرض لا جوعًا للخبز ولا عطشًا للماء بل لاستماع كلمات الرب. فيجولون من بحر إلى بحر ومن الشمال إلى المشرق يتطوحون ليطلبوا كلمة الرب فلا يجدونها* "[30].

---

[28] تك١٢: ١٠

[29] تك١٢: ١

[30] عاموس٨: ١١ـ١٢

إذن يا صديقى، هل هؤلاء الذين عانوا من مثل هذا الجوع، وفقدوا نعمة الحياة في الفضيلة وليس لديهم أطعمة من السماء، من فوق، إذ يضطرون أن يُغيّروا طريقة تفكيرهم إلى نوع من الترحال والتجوال، حيث اللهث وراء السيئات، وإبعاد الذهن بطريقة ما عن الثبات على الدوام في الفضيلة، إذ ينحدر (الذهن) إلى نية وإرادة أخرى لا تخضع لله، لكن لإرادة الشيطان؟. لأنى أعتقد ـــ وهذا ما يستطيع المرء أن يدركه ـــ أن فرعون رئيس المصريين هو صورة ومثال لأبو الخطية وملكها ـــ الشيطان الذى هو أول مَن أدخلها إلى العالم. وهو لم يترك أية طريقة لم يستخدمها ليضلل بها الناس.

بلاديوس: وما هو الأمر الذى جلب الحزن لأبرام الطوباوى، من بداية وصوله في أرض مصر؟

كيرلس: لقد أحزنه أمر حزنًا شديدًا جدًا. عندما كان على وشك أن يتعرض لأعظم شر. يمكنك أن تعرف ذلك الأمر بسهولة من الكتاب المقدس الذى يقول: " *فحدث لمّا دخل ابرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًا. ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون* "[٣١]. انتبه إذن يا صديقى كيف أنه كان على وشك أن يفقد امرأته.

بلاديوس: أمر مؤسف حقًا ويجلب حزنًا عميقًا.

كيرلس: هذا يمكن أن يحدث لنا روحيًا. كما أنه يحدث لهؤلاء الذين يتركون مسكنهم وعالمهم المحبوب جدًا، وهكذا فإنهم ينحدرون إلى السيئات، خاضعين لإرادة الشيطان والقوات المضادة الشريرة التى

---

[٣١] تك١٢: ١٤ــ١٥

تحاصرهم بالخوف من كل جانب وبكل طريقة، هكذا يبتعدون عن الفضيلة. ولو رأت هذه القوات الشيطانية شخصًا من الخاضعين لها لديه مفاهيم ثابتة وقوية، فإنها تحاول ربطه وقيده بأفكارهم، لكي يتكبل في شراكها، وبدلاً من أن يثمر لله يزرع حسكًا للشيطان. لأنه مكتوب "*وطعامها مُسمن*"[٣٢]، وكأنهم قد فتنوا عقل مَن صار أسيرًا لهم، ولذلك نراه ينزلق نحو هذه الأمور الشريرة، فلا يصبو بهمة نحو الحرية، ولا يحاول تحطيم قيود العبودية. أحيانًا أخرى يجلبون للبشر ملذات أرضية ويشبعونهم من كثرة الرغبات العديمة النفع، كما حدث تمامًا لأبرام الطوباوى مع رؤساء المصريين، الذين لاطفوه بكرم مقدمين له الهدايا، قاصدين أن يبعدوا عنه الحزن العظيم، بسبب فقده رفيقة حياته، إذ أنه واضح جدًا أن ما قدموه له كان بسبب سارة " *وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال*"[٣٣]. أى أن الشيطان يغرينا بالأمور الوقتية، ويحرمنا من حرية الثمر والتجديد، وبقوته الشريرة وجشعه وإباحيته ووضاعته يُغوى عقولنا ويخدعنا بالتمتع بالأرضيات. وقد وصل الشيطان لدرجة من الجنون حتى أنه جرب المسيح نفسه. لأنه يقول: " *ثم أصعده إبليس إلى جبل عالٍ وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان. وقال له إبليس لك أعطى هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إلىّ قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد، فإن سجدت أمامى يكون لك الجميع* "[٣٤].

---

[٣٢] حب ١: ١٦

[٣٣] تك ١٢: ١٦

[٣٤] لو ٤: ٥ـ٧

بلاديوس: معك الحق، لكن أخبرنى من فضلك، هل يخرج مَن تحدث لهم مثل هذه الأمور، بفائدة ما ؟

كيرلس: يا عزيزى إن نعمة الله لن تتخلى عن الذهن الذى يمرض بتأثير خداع الشيطان، لكنها تدافع عن ذاك الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه وتحرره. وهذا هو ما صار لأبى الآباء؛ أبرام. فعندما ضجّر البار، ولم يستطع أن يفعل شيئًا بالمرة، تدخل الله في الوسط وحرّر المرأة من إباحية المصريين لأنه يقول " *فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب سارة امرأة إبراهيم* "[٣٥]. وهكذا حفظ فورًا زوجة البار من الإهانة. وبالمثل فإن الله وحده يستطيع أن يُحرر الذهن من قبضة الشيطان، بعد أن كان الشيطان قد صيّره أسيرًا، ويرد الإنسان مرة أخرى إلى كرامته ورتبته الأولى.

بلاديوس: أى أننا عندما نُحرم من الخيرات السماوية، ننحدر مرات كثيرة إلى السيئات والأمور القبيحة.

كيرلس: هذا ما أراه أنا أيضًا.

بلاديوس: لكن على أى حال، فإن الله بمحبته للبشر، لا يتركنا نسقط في أى من هذه الأمور الشريرة.

كيرلس: يا صديقى إن الله بمحبته للبشر يريد هذا ويفعله. لأن صلاحه سيكون قليلاً، ومحبته للفضيلة لا تكون كثيرة، لو لم تكن هذه هى مبادرته لأجلنا. ونحن المُستعبدون لشهواتنا، نثير غضب الرب علينا، بسبب وجود فكر ضعيف فى داخلنا. ألا تسمع ما نادى به بواسطة الأنبياء القديسين " *لذلك هكذا قال الرب هأنذا جاعل لهذا الشعب معثرات فيعثر بها الآباء*

---

[٣٥] تك١٢:١٧

والأبناء معًا. الجار وصاحبه يبيدان "[٣٦]. وبولس الحكيم أيضًا يقول: " *وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق* "[٣٧]. وهذا يقوله إشعياء العظيم بكل وضوح نائبًا عن الإسرائيليين، أى الذين انزلقوا في خطاياهم " *ها أنت سخطت إذ أخطأنا*"[٣٨].

بلاديوس: إذن، عندما نهمل وصايا الله الواجبة ونصير أسرى للخطية، نلقى السبب على الله، ونشتكى من غضبه، وندّعى أنه بسبب هذا الغضب أخطأنا؟

كيرلس: بالطبع سوف لا نلقى بالسبب على الله، لأن هذا سيكون غير منطقى. لكن عندما نقول " أنت سخطت إذ أخطأنا " نقصد أنه إن لم يشملنا عطف الرب فلن يكون أمام الخطية أى عائق يمنعها عن تعذيبنا، وذلك بسبب ضعف طبيعتنا، مما يقود إلى سيادة الشر علينا.

بلاديوس: لقد فهمت ماذا تعنى.

كيرلس: إذن عندما لا نهتم بأنفسنا، وفي نفس الوقت تغيب عنا الرحمة السماوية ونُعاقب من أجل جهلنا، وانحصارنا التام في الوضاعة، ألاّ يتضح أننا سقماء وضعفاء؟ لأنه أى مرض من هذه الأمراض لا نعانى منه؟ وتستطيع أن ترى ذلك بسهولة وأنت تقرأ كلمات إرميا النبى. فإن شعب اليهود المتوحش، حينما أسرف بكثرة وافتخر بمكانته عند الله، وانتصر على أعدائه ووصل في النهاية إلى درجة عُظمى من المجد البشرى، فإنه عصى الله جدًا. وبالرغم من إدّعائهم بأنهم قد صاروا أقوياء بوصايا

---

[٣٦] إرميا ٦:٢١

[٣٧] رو١:٢٨

[٣٨] إش٦٤:٥

موسى، إلا أن تقديرهم للناموس وصل إلى أدنى حد، مسلّمين أنفسهم بغريزة جامحة للهلاك والدمار. فقد بنوا ـ أسفل شجر الظلال ـ مذابح، وأسسوا هياكل للشياطين داخل حديقة مزروعة من الأشجار، مدّعين أن هذه الأمكنة تستحق التكريم، بتقديم ذبائح حيوانية وبخور معتبرين أنها تستطيع أن تخلصهم. وأي من هذه الأمور المزيفة التي نتكلم عنها، لا تسبب الخجل؟! وإذ انحدروا إلى مثل هذه الدرجة من الجهل، فإنهم اعتبروا الذبائح (المضادة لله)، فخرًا لهم أمام أولادهم، ظانين أنهم بذلك يقدمون ذبائح ثمينة. غير أن عدم تقوى الإسرائيليين لم يتوقف هنا. بل تمادوا باستمرار في تهوراتهم هذه، بانزلاقاتهم المضلة نحو الأمور الغير معقولة. ولذا فإن موسى المملوء بالصلاح قد غضب عليهم. إذن بسبب محاولاتهم المارقة للتحرر من عبوديتهم لله فأنه جعل الأعداء يتفوقون عليهم ويقودونهم إلى أسر لا مناص منه، أعنى أسر البابليين والكلدانيين. فقد أتى هؤلاء من وطنهم لكى يستعبدونهم ثانيةً. وحين أشعلوا المدينة المقدسة خطر على بال المحاربين منهم أن يسألوا النبى إرميا: أين سينتهى هذا الشر الذى يحدث، فقال لهما إرميا: " *هكذا تقولان لصدقيا. هكذا قال الرب إله إسرائيل. هاأنذا أرد أدوات الحرب التى بيدكم التى أنتم محاربون بها ملك بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور وأجمعهم في وسط هذه المدينة. وأنا أحاربكم بيد ممدودة وبذراع شديدة وبغضب وحمو وغيظ عظيم. وأضرب سكان هذه المدينة الناس والبهائم معًا، بوبأ عظيم يموتون*"[٣٩]. بعد ذلك يقول: " *وتقول لهذا الشعب. هكذا قال الرب. هاأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت. الذى يقيم في هذه المدينة يموت*

---

[٣٩] إرميا ٢١:٣ـ٦

بالسيف والجوع والوباء والذى يخرج ويسقط إلى الكلدانيين الذين يحاصرونكم يحيا وتصير نفسه له غنيمة. لأنى قد جعلت وجهى على هذه المدينة للشر لا للخير يقول الرب، ليد ملك بابل تدفع فيحرقها بالنار"[40].

فهل أدركت إذًا، إننا عندما نُحزن الله، بمحبتنا للمجد الباطل لا نستطيع الوقوف في مواجهة قوة الأعداء العاتية، وطالما أن الغضب الإلهى يُحاصرنا، سنصير عبيدًا بدلاً من أن نكون أحرارًا، وسنعيش حياة محتقرة بلا مجد.

بلاديوس: أنت تتكلم بالصواب.

كيرلس: إن ناموس الله يقود الإنسان المطيع إلى طريق الحياة بلا لوم، إذ يصير الناموس له نورًا، إذ يُظهر الأمور المثمرة والضرورية ويحفظه في التقوى. ويعيش ــ على ما أعتقد ــ بطريقة مَرْضية، وكأنه يسكن في مدينة مقدسة، في ثبات الفضيلة وفي يقين التقوى. لكن من يُفضّل حياة التهور، ويندفع إلى ملذات العالم ومسراته، وينغمس فيها بكل شهوته ومقدمًا كل كيانه للشياطين، عندئذٍ ستتركه العناية السماوية ويصير صيدًا سهلاً لأولئك الذين يريدون اقتناصه. وهكذا، إذ يصير مطرودًا من المدينة المقدسة أى من فضيلته الأولى، منقادًا كأمر لا مفر منه، لإرادة هؤلاء الأقوياء. وستتركه العناية الإلهية، متحملاً الرحيل إلى بابل، أى بعيدًا عن حدود المدينة المقدسة التي يمجد فيها اسم الله. لذلك كل مَن عانى هذا المصير القاسى، كان يصرخ صرخات عظيمة، لأنه سقط في أيدى الأعداء. ولم يتحمل الحياة بالقرب منهم، إذ كانت حياة عبيد: " *على أنهار*

[40] إرميا ٢١: ٨ــ١٠

بابل هناك جلسنا بكينا أيضًا عندما تذكرنا صهيون"[٤١]. وأعتقد ــ بالحق ــ أن العقل البشرى يُعانى مثل هذا الأمر.

بلاديوس: ماذا تقصد؟

كيرلس: مع أن الإنسان يميل دائمًا للكسل، مع رغبته المستمرة في طلب الخيرات التى في متناول يديه، إلاّ أنه لا يرغب كثيرًا في تلك الأمور التى يمكن أن تستعبده. ولكن إن حدث أن جذبته أى من تلك الأمور وهُزم من بريقها، فإنه سيشعر تلقائيًا بالمعاناة مما كان يجب عليه أن يقاومه بكل قوة، حتى لو افترضنا أنه أثناء مقاومة هذا الهجوم لم تكن له الخبرة العملية فى هذا الأمر.

بلاديوس: هذا حقيقى.

كيرلس: إذًا هو أمر ضرورى ومثال للحكمة، ومن الأمور الأكثر فاعلية، أن تُمنَع بالحرى دوافع الشر، وكل ما يؤدى إلى تلك العبودية المسيطرة، ونحاول أن نَصُدّ فى الحال كل هذه الأمور التى إن سقطنا فيها، فسوف تحاصرنا كل أنواع الشرور.

بلاديوس: هذا صحيح.

كيرلس: ولو لم يكن نير العبودية القاسى قد وُضع علينا كغضب من الله (على عصياننا)، ولم يكن ذهننا لديه أية خبرة، لما كان من السهل (فى هذه الحالة) أن يكون لنا قدرة على المقاومة. وكان من المفيد، أن يكون لنا ــ ولو في ذاكرتنا فقط ــ هذا التساؤل: ما هى الحالة التى كنا عليها، وإلى أى حالة تحولنا، ولكننا سنحزن بمرارة لعدم تيقظنا وغياب المعونة السماوية "*لأن الحزن الذى بحسب مشيئة الله ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة*

---

[٤١] مز ١٣٦: ١

وأما حزن العالم فينشئ موتًا "[٤٢]. لكن ابتعاد الغضب الإلهى عنا، وعند امتلاك زمامنا وإرادتنا مميزين بين الاتجاهين أى بين الشر أو الصلاح، وذلك في حرية إرادة بغير إجبار على الإطلاق. لذلك يجب علينا أن نتحاشى بكل شجاعة حياة الترف كما يجب، وأن يستمر رفضنا للملّذات التى يغرينا بها الأعداء، وبالتالى سنهرب من قبضة أولئك الذين يقولون إنهم رؤساء هذا العالم. أما من يتمسك بأمور هذا العالم الحاضر فإنه سينتهى حتمًا إلى نهاية رديئة وسيئة.

بلاديوس: كيف تقول هذا؟

كيرلس: أتريد أن ندعم حديثنا بأمثلة من القدماء ؟

بلاديوس: نعم ويا حبذا.

كيرلس: عندما عانى سكان الأرض من الجوع كما هو مكتوب، فكر أبناء يعقوب في النزول إلى مصر، كان عددهم عشرة شباب وكان هدفهم شراء طعام فقط. فبعد وصولهم إلى أرض مصر، تعرفوا على أخيهم (يوسف): كان يوسف حينئذٍ هو المسئول عن الأطعمة ومدبرًا لمصر. وعندما علم فرعون ذلك قال ليوسف "*قُل لاخوتك افعلوا هذا: حمّلوا دوابكم وانطلقوا واذهبوا إلى أرض كنعان. وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلىَّ فأعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض . فأنت قد أمرت. افعلوا هذا، خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا. ولا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات .جميع أرض مصر لكم*"[٤٣]. لقد وعدهم رئيس مصر بالراحة والخيرات العظيمة الوفيرة. لقد

---

[٤٢] ٢كو ٧: ١٠

[٤٣] تك٤٥: ١٧ـ٢٠

منحهم مركبات، جاعلاً بذلك النزول إلى مصر أمرًا جذابًا حتى للمترددين منهم. فنزل هؤلاء فورًا بكل عائلاتهم مفضلين الاستمتاع الوقتى بالأطعمة على الوطن والأرض التى منحها الله لهم. لأنه بالتأكيد كان من الأفضل أن تُستغل تلك الأرض بدلاً من الحصول على خيرات من أرض مصر بمشقة قليلة. وعند وصولهم إلى مصر، ظنوا أنهم سوف يتخلصون من متاعب الوطن، لذا كانت سعادتهم فقط في التمتع بالمباهج الوقتية. وبمرور الوقت ومع المعاناة من العبودية، بدأت هذه الجماعة النبيلة الحرة منذ القِدم، أن تتأوه تحت هذا النير. إذًا، إن كانت الرفاهية الدنيوية سوف تقودك إلى السيئات فيجب عليك أن تتجنبها يا صديقى، إذ أن الحياة فى الحرية تتوقف على اختيارنا، بينما العبودية لها متاعبها في العمل والسلوك.

بلاديوس: لقد أحسنت القول.

كيرلس: أشكرك، لكن علينا أن نتحدث ـــ بجانب كل ما ذكرته ـــ عن ذلك، الذى يبدو لى ذو فائدة عظيمة.

بلاديوس: تُرى ما هو؟

كيرلس: إن ربشاقى البابلى، جندي الأشوريين، قاد جماعة جنود لا تحصى، وذهب لكى يحاصر المدينة المقدسة، متوقعًا أنه بسهولة سوف يحرق المدينة من أساسها، وقبل أن يستخدم أسلحته عاب فى الذات الإلهية كما اعتاد دائمًا، وهذا أمر معتاد بالنسبة له. وأعلن للمرة الأخيرة لسكان المدينة المقدسة: كل هذه الأمور يقولها ملك الأشوريين " *اعقدوا معى صلحًا واخرجوا إلىّ وكلوا كل واحد من جفنته وكل واحد من تينته واشربوا كل واحد ماء بئره. حتى آتى وآخذكم (كل واحد) ليرى أرضًا كأرضكم، أرض حنطة وخمر، أرض خبز وكروم أرض زيتون وعسل،*

واحيوا ولا تموتوا ولا تسمعوا لحزقيا لأنه يغركم قائلاً الرب ينقذنا"[٤٤].

لاحظ أنه يعد بالملاطفة في المعاملة والتمتع بالكرم والتين ويضيف " *وستشربون ماء من بئركم* ".

بلاديوس: لكن لو فحصنا هذه الأمور بالمفهوم الروحى، ماذا تعنى بالنسبة لنا؟

كيرلس: أعتقد أن قوة الشر تتمكن منا بطريقتين. إما بالملذات الخارجية، أو بالغرائز المغروسة فينا. المتساهلون مع الخطية مقتنعون بها من ذواتهم. أما الذين تغويهم من الخارج، فإنهم ينقادون إلى المتعة ويُقبض عليهم منزلقين إلى أمور أكثر سوء. وعن ذلك يتحدث تلميذ المخلص حين يقول:

" *لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة ليس من الآب بل من العالم* "[٤٥] وبسبب أن شهوة الجسد هى فطرية ومتجذرة داخلنا ودائمة، لهذا فإن بولس العظيم يسميها ناموس الخطية[٤٦]، الذى يسكن في أعضائنا.. أما شهوة العيون فهى المباهج والملذات الخارجية وكل ما يُرى بالعين. أى أن الناس تُعجب بالغنى الذى تراه بالعيون والملابس الحسنة والأشياء الأخرى التى يتمسك بها البعض، بسبب جلبها للسرور العظيم المزيف الذى يهتمون به اهتمامًا كبيرًا. لذلك فإن أوراق الكرمة والتين هى مثال للمباهج الخارجية والمكتسبة والاستمتاع بكل الأشياء التى في العالم، وهى تعطى بطبيعتها دليلاً قاطعًا أنها لذة وقتية وقصيرة الأجل. والأمر الذى يبدو حلوًا، يصاحبه أمر آخر يجلب عادةً ظلمة للنفس. ذلك

---

[٤٤] ٢ملوك ١٨: ٣١ـ٣٢

[٤٥] ١يو ٢: ١٦

[٤٦] رو ٧: ٢٣

لأن الاستمتاع بالعالم ــ عمومًا ــ يكون له مذاق وقتى حلو، لكنه يُخيم بظلامه المخيف وسطوته المُميتة على النفس التى تمارسه. "المنبع" ــ في هذا النص ــ يشير إلى غرائزنا وأهوائنا الداخلية، التى لا تحدث من الخارج، مثل شهوة العين، لكنها تصدر من داخلنا، وتنساب من جسدنا نفسه. إذًا الأهواء الجسدية والأهواء التى تأتى من الخارج، تجلبان علينا حروب القوات الشريرة، وذلك بمشاركتنا الإرادية لها والاستمتاع بها. وعلى ذلك، فلو هجرنا فضيلة ضبط النفس والتى هى كالمدينة المقدسة وذهبنا إلى ربشاقى ملك بابل الذى وعدهم بالسعادة لهم، وهو مثالٌ للشيطان، الذى يعد بإعطاء السعادة أيضًا، لسقطنا حتمًا في العبودية، مثل أولئك الذين رفضوا التفكير بطريقة حسنة، وأدركوا أن اختيار الشهوات العالمية سيتبعه على كل حال سقوط في تلك العبودية الحتمية، وبالتالى البقاء في زمرة المُستعبدين.

بلاديوس: أنت أصبت. لكن ما هو الحل المقبول؟ أجبنى بوضوح بقدر ما تستطيع.

كيرلس: هل هناك حل آخر سوى ذاك الحل المغاير للأول؟ لأننا إذ قد انزلقنا إلى شهوة الحياة الرذيلة بميل إرادتنا الخاصة، واضعين جانبًا كرامة المدينة التى بلا لوم، وسقطنا في الذهن المُبتذل والمُستعبد، واضعين أفكارنا في الأرضيات فقط، وملتصقين بالكامل بملذات الجسد، فإن الله قد سمح بالسقوط وأسلمنا إلى ذهن مرفوض.

بلاديوس: بناء على ذلك فإنه من الضرورى أن نرجع ثانية إلى الفضيلة.

كيرلس: بدون إبطاء يا صديقي، ولا نشتهي بعد حياة العالم، كما قال بولس الرسول: " *لأنكم مُتم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله*"[٤٧]. لأننا متعطشون لكتابة أسمائنا في السماء، جاعلين وطننا ومدينتنا في السماوات، صارخين بقوة إلى الله " *لا تعاقبني لأني غريب في الأرض مثل كل آبائي*"[٤٨] . لأن ذاك الذي يعيش هنا على الأرض وله مدينة ذات بهاء في السموات، يبدو غريبًا ونزيلاً بالنسبة لأهل العالم. لذلك فإن تلميذ المخلص بطرس يعلمنا بأن نسلك هكذا في هذا الأمر، إذ يقول لنا " *أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس*"[٤٩].

بلاديوس: بالتالي، إن مثل هذا النوع من الاستعداد كافٍ لاقتناء الفضيلة، أعني ضد الشهوات الجسدية.

كيرلس: نعم، إن كان هذا الاستعداد يُكتسب بالحكمة والعمل الروحي. لأنه مكتوب " *أما وصيتك فواسعة جدًا*"[٥٠]. لذا فإني أتصور أنه كان باستطاعتي أن أتحدث في الأمور التي تطهر النفس والجسد، بدلاً من تلك الأمور التي تلوثهما، وذلك بنفس القوة والفاعلية.

بلاديوس: بالصواب تتكلم.

---

[٤٧] كو٣:٣

[٤٨] أنظر مز ٣٨:١٤ــ١٥

[٤٩] ابط ٢:١١

[٥٠] مز١١٩:٩٦

كيرلس: تمامًا، فكما أن التلوث يصيب كل من النفس والجسد، هكذا فإن التطهير سيكون شيئًا سهلاً لكل من النفس والجسد أيضًا. أما كون حب الحياة العالمية هو غريب بالنسبة لهؤلاء الأتقياء الذين يشعرون بغربتهم تجاهه، فمن المفيد لهم أن لا يواجهوا هذا الحب برخاوة. ولو طلب أحد مثالاً، فليأخذ إبراهيم مثالاً لهذا الأمر، إذ قال الله له: " *اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك* جميع *قبائل الأرض*"[٥١]. أفهمت إنه لم يأمره بأن يرحل عن الأرض والوطن فقط ولكن عن أهله وعشيرته وعن بيت أبيه، ويذهب إلى الأرض التى سوف يريه إياها ؟.

بلاديوس: لكن ماذا يعنى هذا ؟

كيرلس: وأيضًا بعد كل ما سبق إيضاحه، هل سيكون غير واضح أن الله عندما يدعو أناسًا لكى يتبعوه روحيًا، يريد أن يبعدهم عن حياة العالم، وأيضًا بعيدًا عن حياة الملذات وحُب الجسد، هؤلاء أراد الله أن يكرمهم، فهل هناك شئ أفضل من هذا؟ فليتصاغر إذًا أمام عيوننا، الوطن والعشيرة والبيت العائلى والتكالب على الخيرات الأرضية. لذلك قد دعانا مخلصنا نفسه أن نُظهر صلابة مماثلة قائلاً: " *مَن أحب أبًا أو أمًا أكثر منى فلا يستحقنى ومَن أحب ابنًا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى. ومَن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى*"[٥٢]ويضيف قائلاً: " *وكل مَن ترك بيوتًا وإخوة أو أخوات أو أبًا أو أمًا أو امرأة أو أولادًا أو* حقولاً *من أجل اسمى يأخذ*

---

[٥١] تك ١٢: ١ــ٣

[٥٢] مت ١٠: ٣٧ــ٣٨

مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية "[٥٣]. ألست تقبل أن هذا الأمر هو نتيجة فاعلية قوة المسيح، وليس نتيجة الصلابة الفائقة؟ وماذا تعتقد: هل حب الأب والأم والوطن أمر عديم النفع، بينما تبعية المسيح هو أمر واجب وضروري؟

بلاديوس: بالتأكيد أقبل هذا، طالما ابتعد أولئك عن الرجاء الحسن وعن نعمة المسيح، الذين دُعوا إلى الاحتفال بالعرس، إذ رفضوا الذهاب، فقد قال واحد من هؤلاء: "*تزوجت امرأة ولم أستطع أن آتى*"[٥٤]، والآخر قال: " *اشتريت حقلاً*"[٥٥]. وهكذا اُعتبرت الأمور الوقتية أسمى من الدعوة إلى العرس.

كيرلس: حسنًا يا بلاديوس، لقد أسعدتنى إذ تقول الصواب، بسبب عطشك للتعلم تتقدم كثيرًا وبنجاح في فهم مغزى كلامى. انتبه، فإن أولئك الذين يتبعون الله بكافة الطرق، واضعين الجسديات والاستمتاع العالمى (في مرتبة) بعد الرجاء في المسيح، هؤلاء سينالون التمتع بالنعم والبركات السماوية. واسمع ماذا يقول لابرآم؟ " *سأجعلك أمة عظيمة وسأباركك*"[٥٦] معطيًا إياه كل ما يتعلق بهذا الوعد. أرأيت إذًا كم هو مقدار الخيرات الروحية المذخّرة له؟ أليس من الجدير أن نرى ونعرف بأى طريقة خرج إبرام من الأرض التى وُلد فيها؟ إذ يقول: " *فأخذ إبرام ساراى امرأته ولوط ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتو إلى أرض كنعان. واجتاز إبرام*

---

[٥٣] مت ١٩:٢٩

[٥٤] لو ١٤:٢٠

[٥٥] مت ١٩:١٨

[٥٦] تك١٢:٢

في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذٍ في الأرض"[٥٧]. لقد خرج من حاران دون أن يترك أى أثر خلفه، ومعه كل عشيرته وأهل بيته. انتقل مستعدًا ومُجهزًا للرحيل إلى أرض كنعان التى أراها الله له. ثم بعد ذلك اخترق الأرض بطولها وأتى إلى أرض جبلية عالية. وهكذا فإن مَن أراد أن يتبع التعاليم الإلهية بإيمان ويكون مستحقًا للدعوة السماوية، متمتعًا بعناية الله الفائقة، فليخرج تمامًا من حياة الملذات العالمية، كأنه يخرج مع كل عشيرته دون أن يترك أية بقية من الاهتمام الذى كان لديه من قبل. إذ بهذه الطريقة يكون هروبه هروبًا حسنًا، إذ قد دُعى من الله. وكما كتب بولس الطوباوى، يمكنه أن يدرك، مع كل القديسين ما هو العرض والطول والعلو والعمق لسر المسيح. وعندئذٍ سيُسرع جدًا نحو الأرض العالية المرتفعة أى المؤسسة على الفضائل، إذ لا شئ يسقطها في محبة الجسد. ولكن عندما وصل أبرام إلى هذا المكان ماذا وجد من صالحات؟ هذا سنعرفه من نفس الكتب المقدسة لأنه يقول: "*وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض، فبنى هناك مذبحًا للرب الذى ظهر له*"[٥٨]. أى كان في وطنه، أُعطِىَ له الأمر النافع الوحيد، أنه يجب أن ينتقل إلى أرض أخرى، مهاجرًا من وطنه. لكن عندما وصل إلى أرض كنعان ومعه كل عائلته واحتياجاته، وصعد إلى الأرض المقدسة، أُعطيت له نعمة الرؤية الإلهية وثقة الرجاء في الحرية الثابتة، ثم التصريح له بعد ذلك ببناء مذبح.

---

[٥٧] تك١٢: ٥ـــ٦

[٥٨] تك١٢: ٧

ونحن أيضًا وللسبب نفسه، سوف لا يكون لنا أية نعمة من الله لو بقينا داخل العالم وفي ملذاته المقززة. أما عندما نُدعى من الله ونطيع الأوامر الإلهية، صاعدين كأنما إلى أرض عالية إلى الشوق والرغبة في كل صلاح، يضع الله داخلنا معرفة المجد ذاته الذى له، ويعدنا بالرجاء الثابت. هكذا يجعل ذهننا مهيئًا لكى نستطيع أن نقدم ذبائح روحية[٥٩] ، ونصير رائحة المسيح الذكية لله الآب بحسب المكتوب[٦٠]، وهكذا نقدم له جسدنا ذبيحة حية ومرضية إلى الله، العبادة العقلية والروحية لأنه يقبل بفرح كل صور عبادتنا الروحية معتبرًا إياها ذبائح روحية[٦١].

بلاديوس: إذًا يجب أن ننتقل إلى حياة أفضل تاركين الحياة السيئة، ونقبل الدعوة السماوية بفرح فائق على قدر ما نستطيع، لتتميم كل ما هو مُكَرَّم في الناموس، لأنه سيكون من الخطأ تمامًا، أن نسعى ونسلك نحو السماويات ثم نعود ثانيةً إلى الأمور الشريرة المعتادة.

كيرلس: بالتأكيد يا صديقى، لأنه رهيب جدًا أن يخضع المرء ثانيةً بإرادته للمرض الذى تخلص منه. لأن أولئك الذين ابتعدوا مرة سيتعرضون للخطر بمجرد التفاتهم نحو هذه الحياة، متذكرين ثانية أخطاءهم فيها ومحولين أذهانهم إلى تلك الأمور التى كانوا يحبونها من قبل. لذلك يتوسل صاحب المزمور قائلاً: "*حوّل عينيّ عن النظر إلى الباطل وفي طريقك أحيني*"[٦٢]. وفي الحقيقة إن التمسك بشدة بشكل من أشكال هذه الحياة وأيضًا الاستمتاع بالأمور الوقتية هو أمر باطل، ويجب أن نكون منفصلين عنه ونتجنبه،

[٥٩] ابط ٢:٥
[٦٠] ٢كو ٢:١٥
[٦١] رو١٢:١
[٦٢] مز ١٣٩:٣٧

ومَن اتخذ قرارًا بالفعل للسلوك في الطريق المستقيم ــ الأمر الذى يستطيع المرء أن يتعلمه ــ عليه أن يتجنب شهوة الأمور العالمية حتى ولو بالذهن.

بلاديوس: مِن مَن، تريد أن تقول؟

كيرلس: إن سكان سدوم وهم منجرفون بعنف جنونى نحو الملذات الغير طبيعية، قد أهانوا ناموس الجماع (التزاوج) الذى حددته الطبيعة كطريقة لإنجاب البنين، وصاروا منجذبين إلى جمال الصبيان. وبعملهم هذا، أتظن أن هناك أمر غير شرعى لم يفعلوه؟ لقد جلبوا الغضب على أنفسهم، وبطريقة ما دفعوا الخالق لكى يُسرع في إدانتهم، بالرغم من كونه بالطبع محبًا للبشر. إذًا عندما جاءت اللحظة التى كان يجب أن يعاقبوا فيها، بعدما صبر الله عليهم صبرًا عظيمًا، دخل إلى سدوم أولئك الذين كُلِّفوا أن يتمموا مهمة العقاب. إذ هو مكتوب: " *فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً وكان لوط جالسًا في باب سدوم. فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض. وقال يا سيدىَّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما. ثم تبكران وتذهبان في طريقكما. وقالا لا بل في الساحة نبيت، فألح عليهما جدًا. فمالا إليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة خبزًا وفطيرًا فأكلا* "[٦٣].

ونجد أن لوط الذى كان قريب إبراهيم، وقد تغذى بالنواميس السليمة، قد تمم ــ بغيرة عظيمة ــ واجب التقوى نحو الله، ومع أنه سكن في سدوم، كان بالنسبة لهم غريبًا، فهو من حيث المولد من أم أخرى، وأيضًا هو مختلف عنهم من حيث أسلوب الحياة. وفق ما قد كُتب: " *أى شركة للنور مع الظلمة.. وأى نصيب للمؤمن مع غير المؤمن* "[٦٤]. لقد تغلب لوط على

---

[٦٣] تك١٩: ١ــ٤

[٦٤] ٢كو ٦: ١٤ــ١٥

عيوب ذلك المكان الذى كانت تسرى فيه حياة العالم المعتادة، وأعطى مثالاً لحفظ ناموس إضافة الغرباء، إذ أكرم الكل، واستقبل وهو في مدخل المدينة أولئك الذين قدموا نحوه متيقنًا أن الله سَيُسرّ بعمله هذا. إذًا عندما أتى الملاكان، اللذين جاءا لعقاب أولئك الذين كانوا يمارسون الإباحية مثل الكلب المسعور، خرج مسرعًا لاستقبالهم، معبّرًا بذلك بكل وضوح عن المودة التى بداخله، إذ قد سجد أمامهم حتى الأرض، ودعاهم للذهاب إلى البيت حتى يعتنى بهما وفق نواميس المحبة. وعندما قالا له: " لا في هذه الساحة نبيت ". أفصحا بهذا أنهما كانا غرباء بلا مأوى وبهذا شجعا لوط لاستضافتهما. وبذلك أعلنا أيضًا وبطريقة حسنة أنه لا يجب أن يتركهما طالما لم يكن لديهما مأوى، بل كانا فى العراء. هذا ما قد فهمه هذا البار، ولأجل ذلك، تمسّك بدعوته لهما وبإلحاح، ولم يجد مبررًا لرفضهما وما أبدياه من نية عدم الاستعداد للمبيت. أخذهما إذًا إلى بيته، وقدم لهما فطيرًا وأعد مائدة لكى يأكلا ويشربا. هذا بالتأكيد ما فعله البار، لكن أهل سدوم الذين طغت عليهم اللا إنسانية واللذة المقززة، أخذوا يحومون ـ برغبات دنيئة ـ حول بيت البار، متجاوزين أقصى حدود الشر، إذا طلبوا السماح لهم بأن يفعلوا معهما حسب عاداتهم الشريرة. وبينما كان يجب أن يختاروا فضيلة محبة الغرباء، أرادوا أن يفعلوا بهما شرًا بسفاهة تتخطى الحدود الطبيعية. وإذ حاول لوط أن يثنيهم عن مقاصدهم البشعة، أرادوا أن يجردوه ويقتلوه فورًا، لولا أنه كان هناك مَن أنقذه. لأنه مكتوب " *فقالوا أبعد إلى هناك. ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكمًا. الآن نفعل بك شرًا أكثر منهما. فألحوا على الرجل لوط جدًا وتقدموا ليكسروا الباب. فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطًا إليهما إلى البيت وأغلقا الباب.*

وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب "[٦٥]. غير أن مساعدتهما له لم تقتصر فقط على هذا لأنه مكتوب بعد ذلك " *ولمّا طلع الفجر كان الملاكان يُعجلان لوطًا قائلين قُم خُذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة* "[٦٦]. وما حدث هو دليل واضح جدًا لك، إذ أن الله لا يشجعنا بالكلام فقط. وعندما نتوسل إليه لكى نتجنب الخطية، فإن مخلص الجميع يصل إلى هذه الدرجة من الجود والطيبة والكرم تجاهنا، لدرجة أنه يُعطينا يده الممدودة إلينا حسب ما تقول الآية " *ولكنى دائمًا معك. أمسكت بيدى اليُمنى* "[٦٧]. أى بسبب أن الطبيعة الإنسانية ليست قوية بالكفاية ولا تملك قدرات كافية تمكنها من أن تتجنب الشر، إلاّ أن الله قد صار شريكًا معها في الجهاد. ونرى أنه يمنحنا نعمة مزدوجة، ويحاول أن يقنع النفس بالشرائع ويمهد لها الطرق التى تساعدها، مانحًا إياها المقدرة على الانتصار على الشر الذى يعطلها ويميتها. وسترى أن هذا الأمر هو أمر واقعي إذ أن أولئك العاملين بالبر، هم قليلون، وأن الرجال الصالحين نادرون في هذه الحياة. لأنه مكتوب " *أما الرجل الأمين فمن يجده* "[٦٨]. لكن هذا الإنسان الأمين هو مختار وجدير بكل رعاية. وبالرغم من أنه يحيا داخل العالم مع الآخرين، لكنه لا يُصاب بضرر من هذا

---

[٦٥] تك١٩: ٩_١١.

[٦٦] تك١٩: ١٥_١٦

[٦٧] مز ٧٣: ٢٣

[٦٨] أمثال ٢٠: ٦

العالم. فهو يُختطف من داخل الأشواك مثل السوسن. وبحسب شهادة القديسين فإن البار لا يمكن أن يهلك مع الأثمة.

بلاديوس: بناء على ذلك، فإن الله يشفق علينا، والملائكة والقديسون يُسرعون نحونا. وسوف نتخلص من شهواتنا الدنيئة، وسوف ننجح ولن نقع أسرى لانتقام الأشرار بأى حال من الأحوال، إذ نؤمن بالله الذى ينادى بفم نبيه " *لأنى أنا الرب إلهك الممسك بيمينك القائل لك لا تخف أنا أعينك. لا تخف يا دودة يعقوب يا شرذمة إسرائيل أنا أعينك يقول الرب وفاديك قدوس إسرائيل* "[٦٩] .

كيرلس: هل يد الملاك التى قد أسندت لوط، لا تكفى لتبرهن على أن الله ضابط الكل هو معين القديسين؟ من الممكن اعتبار الملائكة مثالاً لله. فأولئك الذين اقتربوا من إبراهيم قديمًا عند بلوطات ممرا كانوا ثلاثة، واللذان زارا سدوم كانا اثنين[٧٠]. ومن كلام المخلص نفسه نعلم أن "الآب لا يدين أحدًا" بل "أعطى كل الدينونة إلى الابن" فواضح أن الابن كائن مع الآب، ومن الطبيعى أن الروح القدس كائن معهما.

بلاديوس: إن تفكيرك في هذا الأمر حسنٌ جدًا، دعنا نفحص، لو وافقتنى، بقية الحديث.

كيرلس: لا توجد أية مشقة. سأقول لك فورًا. مكتوب أنه " *وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال اهرب لحياتك. لا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة. اهرب إلى الجبل لئلا تهلك*"[٧١]. عندما يقول الكتاب " *اهرب*

---

[٦٩] أش ٤١: ١٣ـ١٤

[٧٠] الثلاثة يشيرون إلى الآب والابن والروح القدس، والملاكان يشيران إلى الآب والابن.

[٧١] تك١٩: ١٧

لحياتك" يقصد على ما أعتقد، تمامًا هذا الذى يقال " *احفظ نفسك طاهرًا ولا تشترك في خطايا الآخرين* "[72]. وانتصر على كل معوقات العالم لأنه ولا كل العالم يمكن أن يُعطى بدلاً عن النفس " *لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه* "[73]. هذا، وما يقال إن خطواتنا يجب ألاّ ترجع إلى الوراء، ربما يعنى أن لا نرجع إلى الدناءة وألاّ يكون لنا فكر أولئك الذين سيُدانون بالنار، بسبب ضعفهم في ضبط النفس، لأنه يقول:"*ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله*"[74]. يجب أن نُصِرّ على السلوك في طريق الخلاص، ولا ننشغل بأى شئ آخر بإرادتنا، ولا يتملكنا عقل هوائى مندفع نحو شهوات عالمية خيالية تافهة. لكن بعقل راجح متيقظ يهتم دائمًا بالنظر إلى الأمام. وأقول ما هو أعظم، لم يقل له الملاك يجب أن تسير دون أن تلتفت للوراء فقط، لكنه أضاف نصيحة مفيدة بقوله: " *لا تقف في كل الدائرة اهرب إلى الجبل لئلا تهلك* ".

بلاديوس: وماذا يقصد بقوله " لا تقف في كل الدائرة " ؟

كيرلس: أعتقد أنه أراد أن يبين الخمول والكسل نحو الالتزام بتجنب الشر، الشر الذى هو بالتأكيد اختيار خاطئ وقاتل للنفس.

بلاديوس: اخبرنى كيف؟

كيرلس: تقول الكلمة النبوية:" *ملعون مَن يعمل عمل الرب برخاوة* "[75]. ويقول بولس العظيم في موضع ما " *أركضوا لكى تنالوا* "[76]. فكون إننا لا

---

[72] ١ تيمو ٥:٢٢

[73] مت ١٩:٢٦

[74] لو ٩:٦٢

[75] إرميا٤٨:١٠

[76] ١ كو ٩:٢٤

نريد أن نظهر بأسًا شديدًا، أو أن نكون غير مهتمين بالابتعاد عن السيئات، وكون العقل لا يريد أن ينقطع عن الأشياء العتيقة، أو يبتعد بطريقة ما عن كل دناءة، أو يتردد في فعل ما هو نافع، كل هذا لا يعنى شيئًا آخر سوى أن الشخص يتوقف بإرادته في دائرة الشر، بينما كان يجب عليه أن يخرج مُسرعًا. وهناك أمرٌ آخر يمكن أن يحدث وهو أنه قبل أن نخرج من دائرة الشر، وبينما نحن نفكر فيما نفعله بخصوص خروجنا من هذه الدائرة، فإننا نؤجل خروجنا هذا، وبذلك نسبب لأنفسنا الإدانة، إذ أننا لم نُطهر أنفسنا، ولم نتطهر من التلوث الذى أصاب نفوسنا بسبب رخاوتنا القديمة، ولم نلق عن كاهلنا انحلالنا وثقل جرائمنا، ولم ندخل تحت النير الخلاصى لكى يريحنا المسيح. إذًا فهذه النصيحة "*لا تقف في أى مكان في الدائرة*" هى حسنة جدًا وهى تعنى ألاّ تبقى في أى حالة دنيئة أو أى موقف يجعلك أسيرًا، لكن بالحرى اصعد إلى حياة فائقة مشرقة، وكأنك صاعد إلى جبل عالٍ، فتلك الحياة ليس بها أى وضاعة، بل تتميز بالفضائل السامية والفائقة، وبهذا تتخلص من السلوك المشين، أى الأرضى والجسدى. لأنه يقول " *أقوياء الله يرتفعون في الأعالى عن تدبير الذين على الأرض* "[٧٧]. لأن السلوك اللائق بالقديسين هو سامى جدًا عن الأرضيات " *النسور تطير في الأعالى*"[٧٨]. ويحسب المكتوب، فإن حياتهم تنمو، وكأنها على "الجبل" في السماء، ويعتبرون وطنهم السماوى مِلكًا لهم. ويكتب أيضًا بولس في موضع ما "*أطلبوا السماويات وليس الأرضيات* "[٧٩].

---

[٧٧] مز ٤٦ : ١٠

[٧٨] أيوب ٣٨: ٤

[٧٩] أنظر كولوسى ٣: ٢

بلاديوس: إذًا يمكننا أن نفهم أن كلمة "الجبل" تعبر عن حياة القداسة، والارتقاء نحو سماويات الحياة العظيمة، بينما كلمة "أسفل" تعنى طريقة الحياة الغير طاهرة التى تميل إلى الخطية والأمور الأرضية.

كيرلس: حسنًا تقول، لأن هذا هو بالضبط ما قصدته من حديثنا. غير أن ما سوف أقوله لك الآن، هو أمر جدير بالاعتبار.

بلاديوس: ما هو؟

كيرلس: قال الملاك الطوباوى إن لوط كان يجب أن يصعد إلى الجبل مُسرعًا بدون أن يتأخر وبدون أن ينظر إلى الوراء. لكن لوط توسل إليه قائلاً: " *هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذى صنعت إلىّ باستبقاء نفسى وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل. لعل الشر يُدركنى فأموت. هوذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهى صغيرة. اهرب إلى هناك أليست هى صغيرة فتحيا نفسى. فقال له إنى قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضًا أن لا أقلب المدينة التى تكلمت عنها. أسرع أهرب إلى هناك لأنى لا أستطيع أن أفعل شيئًا حتى تجئ إلى هناك. لذلك دُعى اسم المدينة صوغر. وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر* "[٨٠] .

بلاديوس: وما النفع الذى سوف يعود علينا من كل هذا، لأنك تعلم جيدًا إنى أريد أن أتعلم وأستفيد.

كيرلس: ألا تعرف ــ مع أن لديك ميل عظيم للتعلّم ــ إن أولئك الذين قد هجروا الأعمال الدنيئة لا يجب أن يظنوا أنهم سوف يسلكون مباشرة في طريق الخلاص، ولا أنهم بمحاولاتهم الأولى سوف يقتنون الفضيلة ولا يظنون أن قراراتهم سوف تكون قاطعة؟ بل إن المرء لن يسلك بسهولة إلى

[٨٠] تك١٩: ١٨ــ٢٣

المدينة الفاضلة، ولن يبتعد عن الشهوات التى قد تعوّد عليها، لكنه سيبتعد عن كل هذا بهدوء حسب استعداده ورغبته في حياة أفضل. ولن يكون بعيدًا أو أعلى كثيرًا، بل سيكون كما لو كان قد وُجد في أرض أخرى، في حياة تستحق بالتأكيد المدح والثناء، لكنه لم يصل بعد إلى مجد أسمى وأبهى، وذلك كما تُرفع النفوس بالتربية بحسب الناموس، إلى مبادئ حسنة وحياة صالحة. لأنه مكتوب "*بداية طريق الصلاح هى فعل البر*"[٨١]. أى أن الذين يرغبون المعرفة ويشتهون الرؤية السرية، فإن كلمة الوعظ تلائمهم في البدايات، بينما أولئك الذين قطعوا شوطًا أكبر إلى "الإنسان" الناضج وإلى الكمال حيث المسيح هو مقياس له[٨٢]، فيناسبهم كثيرًا الطعام القوى، أى الكلام عن الأسمى، وبعد ذلك طريق معرفة الإلهيات. هكذا أقول هنا، أى في تصحيح السلوكيات والمناهج الأخلاقية، لا ينبغى أن نتوقع وصول البعض للعلو فورًا نحو الكمال، أى إلى ما هو فوق الطبيعى، إلى ما يناسب المدينة الفائقة السمو. فيجب على ما أعتقد أن نبدأ خطوة خطوة من الأمور الصغيرة والتى تتناسب مع قراراتنا في التقدم نحو الكمال. وبطريقة ما نُسرع في الدخول، وكأنه إلى مدينة صغيرة مجاورة إلى الجبل العالى، كما إلى مدينة غير مرتفعة كبداية للحياة السامية والفائقة. هكذا فالبار لوط يمكن أن يكون مثالاً لهؤلاء الذين في هذه الحالة، والذين لم يجدوا لهم مأوى يناسبهم، في الجبل مباشرةً، ولكن في المدينة الصغيرة صوغر. ألا نجد في العظات الإنجيلية مرات كثيرة تطبيق لمثل هذه التدابير في حياة المؤمنين؟. حقيقةً يكتب بولس الطوباوى في رسالته " *وأما من جهة الأمور التى كتبتم*

---

[٨١] أم ١٦: ٧

[٨٢] أنظر أفسس ٤: ١٣

لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن كل واحدة رجلها... ولكن أقول هذا على سبيل الإذن لا على سبيل الأمر. لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا. لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله. الواحد هكذا والآخر هكذا "[٨٣]. أرأيت كيف أن العمل السامى الفائق في ضبط النفس أظهره مثل جبل بقوله " *أنه حسن للرجل أن لا يمس امرأة*". وسمح لنا أن ننزل إلى صوغر، أى إلى حياة ما زالت بعيدة عن مستوى الكمال، وأقصد التصريح بأن يكون المرء في اتصال مع امرأته فقط؟. وقول المخلص: إن الأرض الحسنة جدًا، ستُعطى مائة وأخرى ستون وأخرى ثلاثون. وإن المواهب التى يوزعها ليس بمقياس متساوٍ، لكن الواحد خمسة والآخر اثنين والثالث واحد، بيّن بذلك ــ على ما أعتقد ــ أن قدرات الإثمار غير متساوية، ولهذا فقد وهب بمقدار ما يتناسب مع مقدرة كل واحد ومع معرفته. لأنه سبق أن قُلنا إن لكل واحد موهبته الخاصة من الله الواحد هكذا والآخر هكذا .

بلاديوس: بالصواب تتكلم.

كيرلس: إذن لقد سمح لهم الملاك الطوباوى أن ينزلوا إلى صوغر. لأنه يقول، تعجبت حقيقةً لشجاعتك ولكلمتك هذه، سوف لا أدمر المدينة التى تكلمت عنها معى، أسرع إذًا لتخلص هناك[٨٤]. ثم بعد ذلك يقول تعجبت لطلبك الجرئ أن لا أدمر المدينة التى قلت لى عنها، لأنه حقيقةً، أن الله لا يريد حياة لا تتفق تمامًا مع الفضيلة، كما أنه غير مقبول لديه مجرد التهاون البسيط مع مثل هذه الرغبات، فهذا الأمر لابد أن يُلام المرء عليه.

---

[٨٣] اكو ١:٧، ٦،٧

[٨٤] أنظر تك١٩: ٢١ــ٢٣

ومن ناحية أخرى فإن الله يسمح ـــ من محبته للبشر ـــ بأن يعمل المرء في البداية ما يناسب قدرته. فالله يسمح بخلاص هؤلاء الذين مازالوا يبحثون عن الفضيلة، ومع ذلك لم يبتعدوا تمامًا عن الحياة المثقلة بالهموم. إن الوصول إلى هذه الدرجة وهذه الحالة، لا يتحقق بدون النور الإلهى وضياء المصابيح السماوية لأنه يقول "*أشرقت الشمس ولوط دخل إلى صوغر* ".

بلاديوس: كم هو دقيق ما تقوله؟!

كيرلس: إذًا فإن لوط العظيم دخل بسرعة إلى المدينة الصغيرة بإذن من الله. وفي فعله هذا أظهر أن المرأة التى تبعته في الرحيل كانت ضعيفة، لأنه يقول " *التفتت إلى الوراء وصارت عمود ملح* "[٨٥].

لاحظ أن العقل الشجاع والسلوك الطيب ـــ حتى وإن لم يصل إلى الكمال الذى يُسر به الله ـــ يبدأ في تحقيق النجاح في طريق الفضيلة، إلى أن يبتعد تمامًا عن الشهوات سائرًا نحو الأفضل. أما العقل الضعيف الواهن الذى ترمز إليه هذه المرأة، فإنه بخضوعه المستمر للأفكار الدنيئة ينتهى الحال به إلى الفساد. وهذا فى اعتقادي، يقصده هنا بأنها قد صارت عمود ملح. وهذا يمكن أن يرمز أيضًا للنفس التى بلا حياة، وللعقل الذى يميل للسقوط في الحماقة، والذى قد يصل إلى قمة البلادة. فالملح إذا فسد لن يكون له أى صلاحية، فقد قال المخلص أنه لن يصلح تمامًا بل يُلقى خارجًا ويداس من الناس[٨٦]. المرأة تحجرت إذًا. غير أن لوط لم يكتفِ بهذا إذ يقول الكتاب " *وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه*

---

[٨٥] تك١٩:٢٦

[٨٦] أنظر مت ٥:١٣

خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه"[٨٧]. إن العقل يتقدم بالتدريج نحو الكمال، ويُرفع ببطء إلى مستوى أرقى، ويتقدم ويسمو إلى الأفضل، مستندًا على النضج والسمو الروحى، مثلما فعلتا ابنتاه، حيث تركتا الميل لحب الجسديات والرخاوة التى يُرمز لها بامرأة لوط. ويسكن لوط بعد ذلك كما في جبل ومغارة. وللجبل والمغارة دلالات واضحة جدًا، فالجبل، يشير إلى العظمة وسمو القوة الروحية، بينما المغارة تشير إلى الثبات والاستقرار في الفضيلة. لأنه مكتوب عن الرجال الصالحين ما يأتى: " *السالك بالحق والمتكلم بالاستقامة الراذل مكسب المظالم، النافض يديه من قبض الرشوة، الذى يسد أذنيه عن سمع الدماء ويُغمض عينيه عن النظر إلى الشر، هو في الأعالى يسكن. حصون الصخور ملجأه. يُعطى خبزه ومياهه مأمونة*"[٨٨]. ويمكننا أن نفسر هذا الكلام بطريقة أخرى، بمعنى أن الصخرة هى المسيح، بسبب أن طبيعته الإلهية تقوّم طبيعتنا، فهو كلى القدرة وغير قابل للتغيير. بينما الحصن يمكن أن يُفسر روحيًا ويعنى الكنيسة، إذ هى غطاء للأنقياء حيث يسكن الأبرار والذين يخافون دينونة النار .

بلاديوس : إن حديثنا ــ يا صديقى ــ هو حسنٌ جدًا، غير إنى أريد أن نتقدم فى البحث مستشهدين ببراهين أخرى على ما تقول، لأنه فى معرفة المرء كيف يحب بلا حدود، لهو أمر نافع جدًا ويستحق كل جهد وتقدير .

كيرلس : بالحقيقة أنت تتكلم ، يا بلاديوس ، كما يليق ، لأن كلامك هو ثمرة ذهن محب للتعلّم، وبالحديث معك، سوف ننتصر على التردد ولا

---

[٨٧] تك١٩: ٣٠

[٨٨] أش ٣٣: ١٥ــ١٦

أكون مترددًا فى ألاّ أمارس الصمت معك، فالحديث معك بمثل هذه الأمور المشرقة والمحببة، أفضل من الصمت. وهنا يلزمنا أن نقول إنه يجب على المرء أن يبتعد نهائيًا وبكافة الطرق وعلى قدر طاقته، عن الدناءات وكل ما يتصل بها. وهذا هو الطريق نحو الارتقاء للفضيلة، وليس هناك طريق آخر. ويمكننا أن ندرك هذا بدون مشقة، لو وجهنا أعين الذهن ــ باهتمام شديد ــ إلى تلك الأمور التى حدثت مع ابرآم العظيم، والأمور التى حدثت مع الإسرائيليين فى خروجهم من تحت نير المصريين وتكسير قيودهم.

بلاديوس: تحدّث إذن بالتفصيل وأنت تعرف كم ستسعدنى، لو فعلت ذلك؟!

كيرلس : لقد قلنا إذن، إن ابرآم العظيم الذى كان يعانى من الجوع غير المحتمل، ومن غياب ضروريات الحياة فى ذلك الوقت، لم ينزل بإرادته، لكنه فعل ذلك مضطرًا أمام هذه الضروريات، وبينما كان فى ضيافة أُمة أخرى، فعل به فرعون شرًا، بظلم وألم، إذ أراد فرعون أن يفتن امرأة إبراهيم لتسقط فى شهوة الأعمال الدنيئة، مشتعلاً بمحبة اللذة المنحلة. لكن الله لم يسمح بذلك. لأنه مكتوب " *فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة ابرآم* "[٨٩]. إن فرعون هو مثال ورمز للاندفاع الشيطانى الذى كان لديه هدفًا شريرًا ويسعى لتنفيذه بكل الطرق.

إنه يلقى بذاره الشريرة فى نفوس القديسين، حتى يجنوا كل الثمار المشتهاة وما تجلبه عليهم لذاتهم ــ هكذا أظن أن أهوال الخطية تتحقق بطرق كثيرة ــ فيقبض الشيطان على كل واحد ويخضعه رغم إرادته إلى مقاصده الشريرة. الطبيعة البشرية مصابة بعلة الضعف، لكن الله لا يسمح بهذا بل هو يبطل كل حيل ودسائس الشرير التى يصنعها ضد القديسين.

---

[٨٩] تك ١٢:١٧.

وهكذا أبطل الله مكائد الشيطان عن ابرآم وتجنب بذلك الإهانات الشيطانية إذ في رجوعه من مصر (برهن أنه قديس) وذهب إلى المكان الذى قد أعطاه له الرب وأسند له فيه أعمالاً هامة. لأن الكتاب يقول "*فصعد ابرآم من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب. وكان ابرآم غنيًا جدًا في المواشي والفضة والذهب. وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت ايل. إلى المكان الذى كانت خيمته فيه في البداءة بين بيت ايل وعاى. إلى مكان المذبح الذى عمله هناك أولاً. ودعا هناك ابرآم باسم الرب*"[٩٠].

هل أدركت إذن أنه من الضرورى لمن يهرب من شهوات العالم إلى الحياة المقدسة، أن يأخذ معه كل ما له؟. لأنه بكل العائلة والأهل ــ وسأضيف وبكل المؤن ــ رحل عن مصر أبو الآباء ابرآم. أى يجب بكل الطرق أن يبتعد المرء بإرادته مع كل عائلته وينتقل إلى الصحراء أى إلى حالة روحية طاهرة بدون مضايقات، ينتقل إلى تلك الحالة التى كانت فيها الطبيعة البشرية منذ البداية قبل سقوطها، وأغلق عليها لتُحرم من الخيرات السماوية فاتجهت نحو الشر. هذا يمكن أن يُفسر رمزيًا بنزول ابرآم إلى أمم أخرى، أى من الأرض والخيمة الأولى المحبوبة جدًا، حيث كان المذبح. وهكذا في المسيرة الدائمة إلى الأمام، إلى أن نصل إلى أرض وموضع المذبح الذى تعين فى البداية، أى إلى حالة القداسة الأولى، وهناك نتضرع إلى إله الكل، مكررين كلمة النبى "*يارب نحن لا نعرف آخر سواك. أسمك القدوس هو الذى دُعى علينا* "[٩١].

بلاديوس : لقد تحدثت حسنًا جدًا.

---

[٩٠] تك١٣: ١ــ٤.

[٩١] إش٢٦: ١٥.

كيرلس : لو فحصت جيدًا كل ما صار لأبناء إسرائيل عبر الزمان، عندما استحوذ المصريون عليهم بسبب معاناتهم من الجوع في البداية، هؤلاء المنحدرون من نسل القديسين الأحرار، وضعوهم تحت نير العبودية المُرة، متعاملين معهم بوحشية، إذ يصف هذه القسوة هكذا: " *ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر واعظم منا. هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذ حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض*"[٩٢]. لقد تضايق ــ على ما اعتقد ــ رئيس مصر، من أن أولئك الذين وُضعت عليهم قيود إجبارية، قد اختاروا طريق الحرية، (لذلك تُقرأ) " *فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس* "[٩٣]. فتحمل بنو إسرائيل نتائج إفراط المصريين في حب الاستعباد: من عذابات لا تنتهي في عمل الطوب، وقطع الأحجار، وبناء مدن بحوائط وأبراج، واستصلاح الأراضي، وعرق متواصل في إنهاء عمل بعد آخر، وكل هذا كان يتم بدون أجر. إذ كان رؤساء تلك العصور يُخضعون هذه النفوس المقهورة بأعمال الطين والحجارة من مباني وأسوار، لقد عذبوهم بإجبارهم على ذلك في عبودية مُرة وبدون مقابل (لأنه هكذا تكون أعمال الجسد وكل ما يتصل به)، أجبروهم إذن على قبول حياة قاسية ومليئة بالعناء، والتي لا تُقدم بأي حال أي نفع للمرغمين على أن ممارستها.

والحقيقة ماذا تنفعنا الأعمال الجسدية وشهوات نفوسنا الضعيفة؟ إن فعلنا هذا سوف نعطي مكاسب لإبليس والشياطين، إذ يكون لهم غنى

---

[٩٢] خر١:٨ ــ ١٠.

[٩٣] خر١:١١.

وفخر، مثلما كان لفرعون تمامًا، الذى إعتقد أنه مجد عظيم له أن يبنى الإسرائيليون المدن بدون اجر أو قوت، وفى هذا كانوا مجبرين على تحمل هذه الحالة.

بلاديوس : إن حديثك هو فى الحقيقة، شيق جدًا .

كيرلس : إن مشقة الإسرائيليين تمثل الصورة الواضحة المتكررة لأطماعنا الباطلة الدنسة هنا على الأرض، كما أن الشيطان وقواته الشريرة يمارسون ضغوطًا وهجومًا علينا. يمكننى أن أقول هكذا عن التجارب الشريرة، أنها غارقة فى بحار الألم والتعب، وموحلة فى الملذات الطائشة. لكن الله أظهر حينذاك رحمته لهؤلاء الذين أصابهم شر بواسطة مقاصد المصريين الشريرة، لأن الله أعد موسى العظيم ليكون خادمًا لإحسانه نحوهم .

ألا نجد أن الله يفعل نفس الشيء معنا؟ لأنه بينما ننزلق فى الخطايا ، يمنحنا من مراحمه، ويدخل فى قلوبنا جميعًا ناموسه الخاص، كوسيط يرفعنا إلى حياة الحرية .

بلاديوس : أنا أفهم هذا الذى تقوله.

كيرلس : أتريد أن نركز حديثنا فى الأمور التاريخية ونتذكر بقدر استطاعتنا كل ما يناسبنا؟

بلاديوس : حسنًا جدًا .

كيرلس : قد كُتب الآتى " *وبعد ذلك دخل موسى وهرون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبى ليعيدوا لى فى البرية.. فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل. لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه*"[٩٤]. وهؤلاء أيضًا الذين كانوا مع موسى وهارون أكدوا

---

[٩٤] خر٥: ١ــ٢.

أن الإسرائيليين، يجب أن يرحلوا عن مملكة وأرض مصر، لأن الله دعاهم إلى عيد. لأنه فى الحقيقة هو عيد حقيقى أن ينحل ثقل العبودية المُرة ويُوجد المرء فى حضور الله، ويتمم كل ما يفرحه دون أن يُستعبد من احد، أى بدون أن يجبره أحد على فعل شئ. لقد تفوه فرعون بثرثرة شديدة وأظهر وقاحة عظيمة منكرًا مجد الرب، قائلاً : إنه لا يعرف الرب وأنه لن يطلق الإسرائيليين. ولكن موسى العظيم لم يستسلم بتاتًا، فأصر على أن يحقق الأمر الذى يُسرّ به الله، بمعنى أنه عندما يعوق (فرعون) خروج أولئك الذين سقطوا فى سطوته، إلى الحرية فهؤلاء يجب عليهم أن يظهروا رجولة وينتصروا على كل شئ وبدون تأخير، أو على الأقل بدون أدنى خوف. بل ويصرّون قائلين " *إله العبرانيين قد التقانا. فنذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا. لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف* "[٩٥]، هكذا قد صرخ موسى الحكيم: نحن ـــ العبرانيون ـــ لا نشبهكم أيها المصريون في توقيركم للعجول والخنازير أو الماعز أو منحوتات الإنسان أو أشكال الطيور والزواحف التى تضعونها على المذابح. نحن قد دعانا الله ربنا الذى أبدع هذا الكون. إنه العظيم الذى لا يُحصى مع إله المصريين وهو فوق كل خليقة. إنه إله العبرانيين الذى يدعونا إلى الصحراء، لكى نقدم هناك الذبيحة التى تسره. وهكذا أظلمت مصر روحيًا. ويجب علينا نحن الروحيون أن نفهم ـــ على ما أعتقد ـــ روحيًا كل ما أُعطى لنا بتعاليم وأمثلة. يجب إذن أن نهرب من كل شئ يسبب لنا ظلمة، وهكذا نكون قد خرجنا من أرض ما. نهرب من سطوة الخطية التى تتسلط علينا بواسطة الطاغية، الذى هو الشيطان، ولنسرع نهائيًا نحو حياة الحرية والطهارة

---

[٩٥] خر٥:٣.

ونسلك في طريق الحياة حسب الناموس الإلهى، تلك الحياة التى لا تخضع للشياطين. لأنه سيمكننا عندئذٍ أن نقدم ثمار تبريرنا كذبيحة إلى الله. ويؤكد موسى أنه يجب على الإسرائيليين السير ثلاثة أيام داخل الصحراء، مُعلناً بهذا أنه يجب ألاّ يكون المرء قريبًا من دائرة الدناءة والحياة المليئة بالقهر. يستخدم موسى العظيم أسلوب فنى حكيم عندما يقول إنه يجب على المدعوين من الله أن يبتعدوا عن الظلمة، ويورد لهذا سببًا حسناً جدًا لأنه يقول: ربما يقابلنا الموت أو القتل أو "*لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف*"[٩٦].

بلاديوس: ماذا يعنى هذا بالضبط؟ لأنه ليس من السهل على المرء أن يفهم ذلك بوضوح.

كيرلس: سأخبرك عما تريد: كانت توجد عادة عند العبرانيين وهى مازالت أيضًا عند أولئك الذين يسجدون للأصنام، فكل مَن يدخل إلى الهيكل يجب أن يتجنب المرور بجانب جسد ميت. لأنهم يقولون إن المرء يتنجس جدًا ليس فقط باللمس ولكن أيضًا بمجرد النظر لجسد ميت. فإن حدث هذا، فبسبب تلك العادات يعتقدون أن ذبائحهم لن تكون طاهرة، أى عندما يقدمون ذبيحة، ويتصادف وجود مشهد ميت أو قتيل، لأن موسى قال: أنتم (المصريون) لديكم مقدسات وهياكل بأبواب وأقفال، يمكنكم الدخول إليها وتقديم ذبائحكم فيها حسب معتقداتكم الخاصة بكم، بينما نحن (العبرانيون) مجبرون أن نُقدم ذبائحنا في أماكن مكشوفة في وسط المدينة، وفي تقاطع الطرق، وبين الحقول، ونتنجس بمشاهد الموتى، إذ لا يوجد ما يحجب إطلاقًا عنا هذه المشاهد. إن ما جاء في التاريخ المقدس بخصوص عادات المصريين هو أمر مؤكد، وإن ما قاله موسى الحكيم هو صواب ويمكن لنا

---

[٩٦] خر ٥:٣

نحن أيضًا أن نفهمه روحيًا. أى يجب علينا نحن أن نقدم ذبائحنا كما في صحراء ونتمم عيدًا مقدسًا لله، مرتحلين من أرض المصريين، متجنبين رؤية مشاهد الموت. لأنه بذهن هادئ مبتعد عن الظلمات العالمية، وبأعين متجنبة رؤية كل ما هو ميت وفاسد، نقدم ذبيحة طاهرة إلى الله ضابط الكل. فالأعمال الميتة هى أعمال الجسد، بينما الظلمة العالمية هى الغشاوة التى يسببها الأشرار، والزيغان الباطل، والأمور التى تلوث شفافية الذهن النقى. هذه الأمور يجب الابتعاد عنها ممن يريدون أن يعبدوا الله بالحق. والتاريخ المقدس شاهد على كل هذا.

بلاديوس: بالتأكيد، هذا ليس بالأمر الغامض. ولكن ماذا بعد؟

كيرلس: لقد استحوذ على الإسرائيليين الشوق الشديد الذى لا مفر منه لحريتهم الأولى. ولأنهم قد أعلنوا نيتهم هذه أمام فرعون فإنهم قد أثاروه بإلحاح مما أثار غضبه، وهو الذى قيدهم في نير العبودية. ولأنه رأى أن هذه الاشتياقات كانت نتيجة لتكاسلهم وعدم انشغالهم بعمل، فلهذا أمر بأن يُثقل عليهم في العمل. وإذ بينما طالبوهم بتكميل أعمالهم المعتادة دون تأجيل، منع عنهم على غير العادة حصة التبن اللازمة لعمل الطوب اللبن لأنه قال لهم:" *متكاسلون أنتم متكاسلون. لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب. فالآن اذهبوا اعملوا. وتبن لا يُعطى لكم ومقدار اللبن تقدمونه. فرأى مدبرو بنى إسرائيل أنفسهم في بلية إذ قيل لهم لا تنقصوا من لبنكم أمر كل يوم بيومه* "[٩٧]. أم ستقول يا عزيزى إنه أليس حقيقى أنه عندما يريد أى شخص منا أن يتحرر من ثقل عبودية الشيطان بعبادة الله المشرقة والبهية، في سكينة القلب، ويعرف الرب الحقيقى وفق كلمات المزمور " *تخلصوا من*

[٩٧] خر ٥: ١٧ـ١٩

كل زيغان واعلموا أنى أنا هو الرب الإله "[٩٨]، إن عدو الجميع سيشتكى علينا بأننا لا نعمل معه بجد، معتبرًا أن ما تشتهيه قلوبنا أمر لا يناسبه. أما من شك أنه سيثور علينا مع كل الأرواح الشريرة والنجسة، ويحاول أن يجبرنا بقوة على الانزلاق المستمر في النجاسة الجسدية وأمور العالم الأرضية، التى كان كل واحد معتادًا أن يمارسها. وعندما نحاول الابتعاد عن الأمور الوضيعة، سيعيق هذه المحاولة بشتى الطرق ويُزيّن لنا طريق الشر حتى تتمتع نفوسنا به؟ وهذا ما كان يُقصَد به ــ على ما أعتقد ــ أن يُطلَب من العبرانيين صناعة الطوب بلا توقف، ومن ناحية أخرى يمنع عنهم التبن اللازم لهذه الصناعة. وهذا ينطبق علينا نحن أيضًا، إذ نطلب دائمًا الأمور التى قد تعودنا عليها ونشتهيها، ونحترق شوقًا لها، وبالأكثر عندما نتبين أن هناك أمرًا يعوق تحقيق ما نرغبه. وعندما يُبعد الناموس الإلهى أذهاننا البشرية عن فعل ما تعودنا عليه من سيئات، عندئذٍ يستيقظ داخلنا شوق مستمر نحو هذه العادات، منتهيًا بنا بالشكوى ضد مشرع هذا الناموس. والبرهان على ما نقول هو ما قد حدث لبنى إسرائيل الذين كانوا يعانون من أعمال قاسية فُرِضَت عليهم، في الوقت الذى حرموا من التبن. ولهذا فقد اشتكوا على موسى وهارون بشدة متهمين إياهما بأنهما السبب فيما يعانون من ضيق بسبب المتسلطين عليهم. وقد كان هذا ليس بسبب آخر سوى أن موسى وهارون كان لديهما رغبة قوية في تحرير الشعب، وكانا يصدقان دائمًا وعود فرعون بذلك.

بلاديوس: ألا تعتقد أن موسى وهارون قد تكلما بكل الحقائق وبكل ما يليق؟

---

[٩٨] مز ٤٥: ١١

كيرلس: بالتأكيد يا بلاديوس، لأن شهوة الصلاح والفكر الخيّر قد تدفعنا إلى ما يرضى الله، وفي نفس الوقت نتذكر ناموس التقوى. غير أنه من جانب آخر، فإنه من الأمر المحزن أن نعرف أن عدو الخير بسبب طبيعته الشريرة، يريد دائمًا أن يحطمنا. غير أن الرب يتدخل دائمًا لإنقاذنا. إذ قال لموسى: " *لذلك قُل لبنى إسرائيل أنا الرب. وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام الرب إلهكم الذى يخرجكم من تحت أثقال المصريين* "[٩٩]. أى أنه في الوقت الذى يُعيقنا الشيطان محاولاً أن ينزع منا كل شهوة صالحة وأن يستميت فى إبعادنا بكل الطرق الممكنة، بعيدًا عن كل فكر صالح، فإن الناموس الإلهى يحضنا على فعل إرادة الله، وإذ يعرفنا بذلك ويستنهض فينا الرجاء الثابت، فيقوينا بالإيمان وينسب كل شئ إلى الله، الذى هو بالحقيقة مخلصنا وفادينا.

بلاديوس: إن الإيمان وتبعية المرء لله بفهم وشوق شديد، هى من الأمور الحسنة جدًا ومنقذة للنفس.

كيرلس: لقد قُلت الصواب. لكن ستعلم جيدًا عندما نصل إلى نهاية حديثنا أن الإيمان يقود إلى كل صلاح. فعندما ذهب موسى ورفاقه ليتحدثوا مع فرعون ثانية محاولين إقناعه بأن يتركهم لكي يرحلوا من مصر ويُحرّر بنى إسرائيل من قيودهم. ولكى يقنعوه عملوا أعمالاً معجزية تذهل العقل. فغيّر موسى شكل العصا إلى حية، مؤكدين بوضوح أنهم بمعونة الله يستطيعون بسهولة، إنجاز أشياء أعظم من هذه. لكن فرعون أعطى أمرًا للسحرة المصريين أن يفعلوا نفس الأشياء. وكأن فرعون أراد بهذا الأمر أن يقول لهم، نحن لسنا غير قادرين على مثل هذه الأعمال، وأن مَن يفعل

---

[٩٩] خر٦:٦

هذا من بين المصريين هم أكثر ممن عندكم. فإن أعمال السحر هى أعمال مدهشة وأنتم أيضًا تقومون بها. غير أنه بسبب أن موقف فرعون قد تقسى جدًا لأنه لم يترك بنى إسرائيل، فقد تعرض لضربات أربع، الواحدة أسوأ من الأخرى، إذ تغيرت المياه إلى دم، وظهرت ضفادع وصار بعوض وامتلأت بيوت المصريين ذبابًا، الأمر الذى جعل فرعون أكثر جُبنًا، إذ دعا أصحاب موسى " *فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لإلهكم في هذه الأرض. فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا. لأننا إنما نذبح رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا. نذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا كما يقول لنا، فقال فرعون أنا أطلقكم لتذبحوا للرب إلهكم في البرية. ولكن لا تذهبوا بعيدًا* "[١٠٠]، بمعنى أن الشيطان عندما يحاربنا ويقاوم بعنف وبغضة استعدادنا لعمل الصلاح، فإن الله يقف في مواجهته، وبالرغم من وقاحته، فإن الله يذله بالضربات، وعندئذٍ لا يكون أمام الشيطان مفر إلاّ أن يتركنا رغم إرادته، لكن في الوقت نفسه يحاول أن يقنعنا لكى لا نتمم بدقة عبادتنا نحو الله، أو أن نتحرر تمامًا من عبوديتنا له. لأن فرعون أمر اليهود أن يذبحوا ليس خارج أرض مصر ولكن داخلها. غير أن موسى بحكمته الشديدة قال: أن هذا لا يمكن أن يكون. إن الشيطان وهو مبدع الخطية يصير دائمًا مبتكرًا للدناءات، لهذا يرفضها الناموس الإلهى، ويدين كل مَن يعمل ما يرضى الشيطان. يجب إذن أن يتيقظ أولئك الذين يريدون أن يحيوا باستقامة، وألاّ يخضعوا للأفكار

---

[١٠٠] خر ٨:٢٥ـ٢٨

التى يمليها عليهم الشرير، بل يجب أن يخضعوا للأمور التى بشرت بها الكلمة الإلهية. لأنه يقول "*سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي*"[١٠١].

بلاديوس: إنه حقًا. بالصواب تتكلم.

كيرلس: إذن، بسبب تربص الشرير بنا في كل مكان، محاولاً أن يوقعنا تحت سلطانه، يجب علينا أن نعبد فقط مَن هو الله بالطبيعة، ولنهرب ــ بقدر الإمكان ــ بعيدًا عن الإزدواجية، ولهذا يمكننا القول "*لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر*"[١٠٢]. وأيضًا كما هو مكتوب "*ويل للقلوب الهيابة وللأيدى المتراخية وللخاطئ الذى يمشى في طريقين*"[١٠٣]. وأؤكد على ضرورة الحاجة إلى تقديم عبادة طاهرة وبلا لوم إلى الله ضابط الكل، ونبتعد تمامًا عن عبادة الشرير. وكما سبق أن ذكرنا أن موسى قال أمام فرعون "*لا يصلح أن نفعل هكذا، لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا.. إن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا، نذهب سفر ثلاث أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا كما يقول لنا*"[١٠٤]. إن رفض موسى تقديم ذبائح في أرض مصر أمام المصريين له ما يبرره. فالأشياء الرجسة هنا يقصد بها تلك الأشياء التى يُقدرها المصريون ويحترمونها، والتى كان من بينها العجول. فلو قال موسى أنه يمكن تقديم مثل هذه الذبائح لإله العبرانيين، لجلب عليه وعلى شعب إسرائيل غضب المصريين. هذا الرفض له علاقة بما نتكلم عنه من أمور روحية ومنافع ليست قليلة. لأننا

[١٠١] مز ١١٨:١٠٥

[١٠٢] مت ٦:٢٤

[١٠٣] حكمة ابن سيراخ ٢:١٤

[١٠٤] خر ٨:٢٥ــ٢٨

عندما نميت الأمور التى يجلها الشياطين إذ تروق لهم، فإننا بذلك نقدم عبادة مرضية أمام الله.

بلاديوس: ماذا تقصد؟

كيرلس: ألاّ يكّرم عدو الخير الشهوات الجسدية؟ وليست كل الشهوات هى سيئة في حد ذاتها، بل أنه بسبب عدو الخير، فنحن ننساق إلى عبودية مُرّة جدًا.

بلاديوس: هذا حق.

كيرلس: إذن، فنحن في إماتتنا لهذه الشهوات الجسدية، وفي ذبحنا لها، نُقدم رائحة ذكية إلى الله كما يكتب بولس " أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية "[١٠٥]. وهذا الأمر يتحقق بما يأتى: " *فأميتو أعضاءكم التى على الأرض الزنا النجاسة الهوى الشهوة الردية الطمع* "[١٠٦]. إذن فكل شهوة من شهواتنا، هى صنم كأصنام المصريين بمعنى أنها أمور مُكرمة وموقرة، وقد اعتاد الكتاب أن يدعو الأمور التى لا ترضى الله والتى يعطيها البشر مكانة عظيمة كالأصنام التى يعبدونها "تمثالاً"، فيقول الله على لسان إرميا من جهة الأمور التى كان يفعلها اليهود: " *حبيبتى داخل بيتى صنعت تمثالاً* "[١٠٧]. ولو أراد أحد أن يدعو الأمور التى كان يكرهها المصريون ولا يقبلونها، أصنامًا، لكان على صواب، لأن هذه الأمور التى اعتادت الأرواح النجسة أن تكرهها وتنفر منها، هذه الأشياء هى بالضبط التى ستُقدم كرائحة ذكية إلى الله وذبيحة

[١٠٥] رو ١٢:١

[١٠٦] كولوسى ٣:٥

[١٠٧] إر ١١:١٥.

روحية، أى إيمان، وداعة، ضبط النفس، عفاف، محبة الآخرين، وكل مفاخر التقوى الحقيقية نحو الله.

بلاديوس: مَن هم أولئك الذين يقدمون ذبائح في أرض الشرير؟ ومَن هم أيضًا الذين يذبحون خارج هذه الأرض؟

كيرلس: أولئك الذين لم يخرجوا بعد من أرض المصريين، والذين مازالوا يقدمون ذبائح إلى الله داخل هذه الأرض، هم كثيرون جدًا وبلا حصر، بينما هؤلاء الذين هم خارج مصر أى داخل الصحراء هم قليلون جدًا ومختارون لأنه يقول: "*كثيرون هم يُدّعون وقليلون يُنتخبون*"[١٠٨]. فكُلنا قد دُعينا إلى الحرية بواسطة إيماننا بالمسيح، وقد أُفتدينا من الشيطان الطاغية والمسيح يقودنا إلى هذه الحرية، ولقد كان موسى وهارون مثالاً سابقًا للمسيح، حتى تدرك يا بلاديوس أن عمانوئيل حسب التدبير، هو المشرع ورئيس الكهنة والرسول. لكن مازالت الأكثرية من المدعوين تعيش في الأمور العتيقة والشريرة مبتعدين بسبب أفكارهم العالمية عن الحق غير عابدين الله في نقاوة وإيمان. هؤلاء هم الذين يمكن ان تقول عنهم أنهم ابتعدوا قليلاً، لكنهم مازالوا يذبحون في مصر، لأن فرعون القاسى القلب قال لهم " لا تذهبوا بعيدًا "، حتى لو خرجتم من أرض المصريين. أما أولئك الذين يريدون أن يكونوا مرضيين تمامًا عند الله بالانتقال التام إلى الصلاح، فهؤلاء يتخلصون مرة واحدة ودائمًا من ضلال العالم، فيخرجون خارجًا من مصر، ويهربون من يد الطاغية، وكما في صحراء، يقدمون ذبائح لله بطهارة: هؤلاء هم أنقياء بالفعل ويعيشون في حياة السكينة والهدوء. ويمكننى أن أقول ذلك بطريقة أخرى، وأؤكد على هؤلاء الذين

---

[١٠٨] مت ١٢:١٤

يتأهبون للسير في طريق الحق، والذين دعوا لمعرفة ذلك الذى هو بالطبيعة الله، هؤلاء يجب أن يرحلوا بعيدًا عن أرض العبودية التى فيها تُعبد الخليقة دون الخالق. أى أن الذين لم تَتخلّص أذهانهم تمامًا من بقايا الخداع القديم، والبعض منهم لم يخرجوا تمامًا من أرض مصر وهم يحفظون أيامًا وشهورًا وأوقاتًا وسنينًا، هؤلاء بالرغم من أنهم قد دُعُوا بواسطة المسيح إلى الحرية، إلاّ أنهم بسبب سكنهم في أرض المصريين، فإنهم لا يذبحون لله، ممسكين بكل الأمور التى تُسرّ الشيطان. أما مَن يخرج تمامًا من أرض العبودية وقد تخلّص كلية من العادات القديمة، فإنه يذبح للرب في الصحراء ويحيا حياة تستحق كل الثناء.

بلاديوس: أوافقك على كل فكرك الصحيح هذا، ودعنا نستمر في الحديث .

كيرلس: لقد كذب فرعون وتنكر لوعده بأن ترك الإسرائيليين ليرحلوا. بعد ذلك ضُرِبَ ثلاث ضربات أخرى جعلته يوافق قائلاً: إنه سيتركهم. لكنه هنا قد أُمسك ثانيةً وهو يقول الأكاذيب، لأنه وفق كلام المخلص" *إنه كذاب وأبو الكذب*"[١٠٩]، وبعد ذلك هدد الله المصريين وألقى عليهم بردًا شديدًا وجرادًا (يدمر الحقول). عندئذٍ رفع موسى وهارون ـــ هؤلاء المدافعين الأشداء ضد شر فرعون ـــ صوتهم قائلين له بقوة " *إلى متى يكون لنا هذا فخًا. إطلق الرجال ليعبدوا إلههم أما تعلم بعد أن مصر قد خرُبت* "[١١٠] .

ومن هنا يجول بخاطرى، أنه ربما يكون الشيطان في حالات معينة هو الأقوى من بين قوات السلاطين. حيث إنه يتفاخر بنصره، لأن قواته ـــ كما هو ظاهر ـــ صلبة وقاسية بما لا يُقارن، وهو لا يقيم وزنًا للغضب

---

[١٠٩] يو ٨:٤٤

[١١٠] خر ١٠:٧

الإلهى، فوحشيته فائقة وقسوته لا نهاية لها، لأنه مكتوب " *قلبه صلب كالحجر وقاسٍ كالرحى*". وحينما علت الأصوات أمام فرعون ــ مطالبة بالحرية ــ قال لأصحاب موسى " *اذهبوا اعبدوا الرب* إلهكم لكن مَن ومَن هم الذين يذهبون " *وقال موسى نذهب بفتياننا وشيوخنا. نذهب ببنينا وبناتنا بغنمنا وبقرنا لأن لنا عيدًا للرب. فقال لهما ويكون الرب معكم الرب هكذا كما أطلقكم وأولادكم. أنظروا إن قدام وجوهكم شرًا. ليس هكذا اذهبوا أنتم الرجال واعبدوا الرب لأنكم لهذا طالبون* "[١١١]. فكر إذن يا عزيزى، كيف أن ما قاله موسى كان حسنًا جدًا، عندما أصّر على الرحيل هو وكل شعبه، وكيف أن فرعون لم يقبل ذلك، لكنه قال إنه يجب أن يُترك البعض كرهائن في مصر حتى يضمن رجوع الذين سيذهبون إلى الصحراء، كما قال إنه يجب أن تظل كل مؤنهم في مصر، وأمر أن يذهب فقط الشباب والرجال. غير أن موسى كليم الله أصرّ على أن يخرج معه الجميع بدون أن يُترك هناك أحد، وأن يذهب معه كل الشباب والشيوخ، الأبناء والبنات، وقطعان البقر والحيوانات الأخرى. أى يجب على المهتمين بالحصول على الحرية الحقيقية، والخلاص من شرور العالم بإرادتهم، والسلوك في طريق الفضيلة، ألاّ يتركوا ولو بقية صغيرة جدًا من ذواتهم وأفكارهم بدون أن تتحرر، حتى لا يخضعوا ثانية بواسطتها تحت سلطان الشرير. والوصايا الإلهية، تدعو الفتيان والفتيات والشيوخ مع الشباب لفعل هذا أيضًا وذلك في المزمور(١٤٨: ١٢). ويمكننا أن نفهم مراحل العمر بطريقة روحية في المسيح. فلهؤلاء وجّه يوحنا العظيم قائلاً " *أكتب إليكم أيها الأولاد لأنكم قد عرفتم الآب. كتبت إليكم أيها الآباء لأنكم قد عرفتم الذى من البدء. كتبت*

---

[١١١] خر ١٠: ٨ــ١٠

إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء وكلمة الله ثابتة فيكم وقد غلبتم الشرير"[112].
حيث يمكن أن نفهم مراحل العمر هكذا: الأحداث يرمزون للشهامة والرجولة، الشيوخ للحكمة، والأولاد والبنات يرمزون إلى الفكر البسيط. لأنه بالرجولة والحكمة والبساطة بحسب الله ننتقل من الخطية إلى حياة القداسة، لأنه يقول:" *لتتشدد ولتتشجع قلوبكم ياجميع المنتظرين الرب*"[113]. وأيضًا " *كونوا حكماء كالحيات بُسطاء كالحمام*"[114]. ويقول موسى أن يأخذوا معهم الأغنام والأبقار، فإنى أعتقد أن هذا يشير إلى أنه لا يجب أن نترك للشيطان ولا حتى أعضائنا الجسدية التى لا تشترك في عملية التفكير. إذ أن بولس العظيم يكتب:" *لأنه كما قدمتم أعضاءكم عبيدًا للنجاسة والإثم هكذا الآن قدموا أعضائكم عبيدًا للبر للقداسة* "[115].

بلاديوس: لكن لأى سبب أراد فرعون أن يترك الشباب والناضجين ليرحلوا، بينما أراد أن يحتفظ بالآخرين ؟

كيرلس: وماذا تقصد بالآخرين الذين يبقون في مصر؟

بلاديوس: كانوا ــ على ما أعتقد ــ نساءً وأولادًا صغارًا والمرضى والعجائز وحيوانات وممتلكات أخرى.

كيرلس: وكيف لا تفكر مباشرةً في معنى بقاء هؤلاء بالذات في مصر؟

بلاديوس: عمَن تريد أن تتحدث؟

كيرلس: إن (الشيطان) يعتبر أولئك المملوءين حيوية ونشاطًا ولديهم استعدادٌ قوي لحياة التقوى، يعتبرهم مزعجين له، لأنه يريد أن يتخلص

---

[112] يو٢: ١٣، ١٤

[113] مز ٣١: ٢٤

[114] مت ١٦: ١٠

[115] رو ٦: ١٩

ممّن يمكنهم أن يقاوموه، إذ لديهم القدرة على الرد والدفاع عن ذواتهم عندما يقع عليهم الظلم حسب المكتوب " *قاوموا إبليس فيهرب منكم*"[١١٦]. وعلى العكس من هذا، فإنه أراد أن يُبقى أولئك الذين ليس في طبيعتهم تلك الحيوية وذلك النشاط، بل هم يميلون في سلوكهم للرخاوة والتنعم، الذى ينم عن الضعف والعجز. وتشير الأبقار والأغنام السمينة وغير العاقلة التى أراد فرعون أن يبقيها في مصر إلى هؤلاء الذين ذكرنا أنهم يسلكون في رخاوة وتنعم.

بلاديوس: حسناً، بالصواب تتحدث.

كيرلس: غير أن فرعون صاحب الرأس العنيد لم يوفِ بوعوده، إذ أنه بسبب هجوم الجراد الذى ــ كما تقول الكلمة ــ أكل كل شئ في الأرض، دعا موسى، وهارون وقال لهما: " *اذهبوا اعبدوا الرب. غير أن غنمكم وبقركم تبقى، أولادكم أيضًا تذهب معكم. فقال موسى أنت تعطى أيضًا في أيدينا ذبائح ومحرقات لنصنعها للرب إلهنا. فتذهب مواشينا أيضًا معنا. لا يبقى ظلف. لأننا منها نأخذ لعبادة الرب إلهنا. ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتى إلى هناك* "[١١٧].

بلاديوس: وماذا يمكن أن نفهم من حديث موسى الحكيم؟ أو إلى أى شئ ترمز هذه الأشياء التى ستخرج من مصر ويطلقها فرعون ثم تخصص لله؟

كيرلس: الكلام واضح يا صديقى، إن مَن يقاوم ويحارب أولئك الذين يريدون أن يكونوا أنقياء، يريد أن يحتفظ ولو بجزء بسيط منهم تحت سيطرته، حتى لو ظل الباقي خارج قبضته. وغير ذلك فإن الوصية الإلهية

---

[١١٦] يع ٤:٧

[١١٧] خر١٠:٢٦

تعلمنا بأن الحرية يجب أن تشمل الإنسان كله، فلا يُترك في قبضة الشيطان ولو جزء صغير جدًا من النفس أو حتى أى دافع لأى عمل جسدى. بل بالحرى يجب أن نقدم لله كل ما هو حسن وفائق في هذه الحياة. لأن هذا ما تعنيه أن يأخذوا الحيوانات معهم من مصر ويذبحونها لله في الصحراء. ألم يكن هذا هو ما فعله هؤلاء الذين بحكمة العالم، كانوا يقاومون عقائدنا الإلهية، مستخدمين حكمة الكلام المبهر، والمعرفة التى تسبب مرارة النفس، وهم في ذلك كله يظنون أنهم يقدمون عبادة عقلية لله؟. ولأن "*كل حكمة هى من الله*"[١١٨] كما هو مكتوب، فإننا نقول إن الشعراء والفلاسفة اليونانيين وصلوا لهذه الفصاحة بروح العالم وليس عن طريق الحكمة الإلهية. ولهذا يقول بولس العظيم "*ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذى من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله. التى نتكلم بها أيضًا لا بأقوال تعلمها حكمة إنسانية بل بما يُعلمه الروح القدس*"[١١٩]. وفي الحقيقة إن موسى عندما قال إن الإله الحقيقى لا يحتقر ما نقدمه له من أشياء ثمينة من هذا العالم، كان لا يزال تحت ظلال العهد القديم، ولهذا لم يبين ما قاله بوضوح، بل تكلم عنه بالرمز. لأنه عندما أمر الله بأن يسلب الإسرائيليون أشياء من المصريين، قال إنه يجب أن يأخذوا من جيرانهم مصنوعات ذهبية وفضية، ولقد أتم نساؤهم هذا الأمر باقتدار، حيث تميزن بكثرة الكلام المقنع وابتداع الحيل مع النساء المصريات. إن الأوانى الذهبية والفضية التى كانت للمصريين، يمكن أن تمثل، كما قُلت من قبل سبب فخر لبعض الأشخاص، بالرغم من أنهم يعرفون الإله الحقيقى. ويمكننى أن أكرر ثانية

[١١٨] حكمة ابن سيراخ ١:١

[١١٩] ١كو ٢: ١٢_١٣

ما يأتي: إن نشاط الفكر والنفس والميل نحو كل صلاح، هى عناصر مشتركة لجميع الناس، لكن أولئك الذين يستخدمون هذه المميزات الطبيعية، استخدامًا حسنًا يحققون حياة مُشرقة وفائقة، بينما أولئك الذين لا يستخدمون هذه المميزات ينحرفون تمامًا عن جهل إلى كل ما لا يليق، ويُظهِرون ــ بطريقة ما ــ كيف أن خيرات الطبيعة يمكن أن تستخدم بطريقة غير حسنة. أى أن الشجاعة والحكمة هى حسنة عندما تُستخدم بطريقة سليمة، وأيضًا هى مُضرة عندما لا تستخدم بطريقة جيدة. لأن الشجاعة والحكمة يمكن أن تكونا سببًا لإطراء واستحسان لعمل شخص، وسبب إستجهان لعمل شخص آخر. إذ أن كل هذه الأمور هى مشتركة بين الجميع، أى لمن لديهم معرفة الله وأيضًا لمن هم في ضلال عدم معرفته.

إذن عندما نستخدم نحن هذه الصفات في عمل يرضى الله، فإن هذا يشبه ما أُخِذَ من المصريين من خيرات مادية، وأصبح مقدسًا ومقبولاً لدى الله، كالأوانى الذهبية التى يتبين أن لها فائدة عظيمة في صنع وتكميل خيمة الاجتماع. وبعد سلب هذه الأشياء من المصريين وموت الأبكار تحرر الإسرائيليون، وذبحوا الحمل كمثال للمسيح. لأنه لم يكن باستطاعتهم أن يحصلوا على الحرية بطريقة أخرى، حيث إن الفداء يتم فقط بالمسيح، والذى منه تنزل كل موهبة صالحة. عندئذٍ رحلوا من مصر في منتصف الليل وتحرروا من الظلمة والعبودية. لأن عبيد الخطية يحبون دائمًا التواجد في الظلمة الذهنية وليس في النور الإلهى، كما يقول المخلص "*كل مَن يعمل السيئات يبغض النور*"[١٢٠]. فأخذوا عجينًا غير مختمر ورحلوا بدون مؤن. لأنه يقول " *وألح المصريون على الشعب ليطلقوهم عاجلاً من*

---

[١٢٠] يو٣:٢٠

الأرض. لأنهم قالوا جميعنا أموات. فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم"[121]. لأنه لا يجب ــ على ما أعتقد ــ على كل مَن يريدون أن يُدعوا إلى الله ويبرهنون على أنه يسكن في داخلهم، أن يأخذوا معهم أى فتات من شرور العالم، وألاّ تكون مؤنهم هى أطعمة غريبة ونجسة. بل خبزًا بلا خميرة، مشتهين الخبز الذى يُحيى العالم. وهؤلاء يعيشون في نقاوة متممين عبادة مقبولة لله، وهكذا يسلكون دائمًا حسب إرادته.

بلاديوس: نستنتج من هذا إذن، أنه يجب على محبى الله والصالحين أن يصلوا إلى الأرض المقدسة، أى إلى مملكة المسيح، متحررين من كل عبودية، مُسرعين لكى يذبحوا لله ليس في أرض الأعداء، حيث تستعبدهم محبة الخطية، لكن بالحرى يذبحون وهم على استعداد تام لعمل الفضيلة والسلوك بعيدًا عن كل تسلط الشيطان الطاغى.

كيرلس: هكذا يكون الأمر يا صديقى، ولا تصدق أن الأمر يمكن أن يتم بطريقة أخرى. لقد أفضنا في الشرح، غير أنه من الممكن ــ لو أردت ــ أن نرى الأمر نفسه في موقف آخر، إذ عندما أحزن ساكنى المدينة المقدسة أورشليم مخلص الجميع، إذ كانت لديهم شهوة فعل كل ما هو غير لائق، صاروا مستعبدين للبابليين، الذين أسروهم وجعلوهم عبيدًا رغم إرادتهم. وإذ صاروا عبيدًا انتابهم حزن عظيم، وصاروا ينتحبون على مصائرهم. فأخذوا يسبحون الله في محاولة تخفيف الألم الذى أصابهم، والتقليل من الحزن الذى كانوا يعانون منه قائلين مع داود "*تذكرت الله فامتلأت فرحًا*". فلقد حوّل داود تسبيحه لله إلى عيد روحى، غير أن البعض منهم ظن أنه

---

[121] خر ١١:٣٣ــ٣٤

أمر لا يليق أن يكون هذا التسبيح العذب وتلك الأناشيد الجميلة على مسمع من قوم غرباء لا يقدرونها، إذ كان البابليون يستهزئون عند سماعهم تلك التسابيح. لذلك قالوا " *على أنهار بابل هناك جلسنا وبكينا عندما تذكرنا صهيون*"[١٢٢]. فهناك (فى الهيكل) كانت تُقدم صلوات ذبيحة شكر مصحوبة بآلات وترية ونفخ وموسيقى تخلب عقول هؤلاء الذين يأتون إلى الهيكل المقدس. كل هذا كان يقدم وفق نواميس وعادات اليهود، لكن بسبب أنهم كانوا في عبودية غريبة وثقيلة ومقيدين بشدة، كانوا يقولون منتحبين " *على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا*"[١٢٣]، معلنين بهذا أنهم توقفوا عن الغناء والتسبيح. فشجرة الصفصاف هى شجرة عقيمة أو بالأحرى شجرة ثمارها ضارة كما قال أحد شعراء اليونان[١٢٤]. ظلت إذن آلات الأناشيد بغير استخدام، وفي صراخهم تساءلوا: "*كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة*"[١٢٥]؟ وعندما نقل لهم باروخ كلمات إرميا بكوا، إذ يقول:" *فبكوا وصاموا وصلوا أمام الرب. وجمعوا من الفضة قدر ما استطاعت يد كل واحد. وبعثوا إلى أورشليم إلى يواقيم بن حلقيا بن شكوم الكاهن وإلى الكهنة وإلى جميع الشعب الذين معه في أورشليم*"[١٢٦]. وبعد ذلك يقول: " *وقالوا إنّا قد أرسلنا إليكم فضة فابتاعوا بالفضة محرقات وذبائح للخطية ولُبانًا واصنعوا تقدمات وقدموها على مذبح الرب إلهنا*"[١٢٧]. لقد ظنوا أنه لا

---

[١٢٢] مز ١٣٦: ١ـ٢

[١٢٣] مز ١٣٦: ٢

[١٢٤] هوميروس: الأوديسا ٢٠

[١٢٥] مز ١٣٦: ٤

[١٢٦] باروخ ١: ٥ـ٧

[١٢٧] باروخ ١: ١٠

يليق بهم أن يذبحوا، طالما هم خارج الأرض المقدسة ولا هم تحت سلطان الله. حيث كانوا تحت نير وسلطان شخص آخر طاغى. لذلك أسندوا العبادة لهؤلاء الذين كانوا يسكنون في أورشليم، إذ كان يليق بهؤلاء مثل هذه العبادات المقدسة، وفي هذا كانوا يفكرون تفكيرًا سليمًا فيما هو واجب، ويفعلوه. دانيال الحكيم وهو يدرس الكتب المقدسة، مع انه كان أسيرًا معهم، لكنه حاول مع آخرين أن يخفف عنهم هذه الحالة الصعبة. وكيف فعل ذلك؟ إنه صلى ثلاث مرات في اليوم. وإذ كانت الكوة مفتوحة تجاه أورشليم في العلية حيث كان يصلى، كما هو مكتوب[١٢٨]، حينئذٍ ظن أن صلاته ستكون مقبولة أمام الله، طالما أنه ابتعد عن الأرض الغريبة والمكروهة، وإن كان ليس بالجسد، أى ابتعد على الأقل بذهنه، وبأعين النفس، ناظرًا نحو تلك الأرض المحبوبة إلى الله، ومتقدمًا ـــ وكأنه بطريقة ما ـــ داخل الهيكل المقدس نفسه، لكى يقدم صلاته.

بلاديوس: في الواقع كان حديثنا ممتعًا للغاية.

---

[١٢٨] دانيال ٦: ١٠.

كتابات الآباء التى صدرت





يُطلب هذا الكتاب من :

✝ المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية ت : ٢٣ .

✝ بيت التكريس ت : ٤٨٣٦٣٨٩ .

✝ ومن المكتبات والكنائس بالقاهرة والأقاليم .

سعر النسخة : جنيه ونصف